ما في الذاكرة إلاكِ

ما في الذاكرة إلاكِ

﴿ رسائل الفرح والجنون ﴾

رواية

شعيب زواوي

اسم الكاتب: شعيب زواوي
اسم الكتاب: ما في الذاكرة إلاكِ
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – نوفمبر ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 21529

للنشر والتوزيع
Arabic Library

١١٤ ع جنوب الأحياء – السادس من أكتوبر
Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

ت / ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

رسالة الذكريات ١
من قيس إلى فيروز

١

تمدين نحوي الدينارين، أحاول الامساك بأصابعك مع الدينارين وأنا أشكرك، لكنك تسحبينها في خفة ودلال، وقد ارتسمت على وجهك ابتسامة خفيفة، كأنك تقولين من ورائها: "كيف تشكرني على حق هو لك؟ !"

تتلاشين بعد ذلك مخلفة وراءك خيالا أضحى صاحبي، يأخذني إلى عوالم جميلة، ينسيني مغامراتي العاطفية الفاشلة، أتيه في الصمت، في نسج خيوط تنتشلني من هذا الفراغ الموحش، وتعيدين بعث غزلياتي الشعرية التي هجرتها منذ أن عملت في هذا "الطاكسي فون"..(١)

لا زال قلبي يرفض الانصياع، ولازالت نظراتي إليك وأنتِ عائدة كل مساء لا تحرك مشاعري ولا تسيل حبري المحنط.

وتدخلين من جديد مقر عملي، محملة بكثير من اللامبالاة، لكن مكالمتك الأخيرة كانت قصيرة جدا، وربما لم تتكلمي، جئتِ فقط لتنظري إليّ، لتقولي أنّي هنا لأجلك، هذا ما حاولت

استنتاجه أو ما حاولت إقناع نفسي به.

تمدين نحوي الدينارين، أحاول الامساك بك، تتمكنين من الافلات، تعيدين نفس الابتسامة، ومعها غمزة شفتيك.

تتركين المحل، وترفضين التلاشي من أمامي، أغمض عينيّ هروبا منك، فأجدك تتوضحين أكثر، بقدك الرشيق، بسمرتك العربية الساحرة، بعينيك الواسعتين، وحتى بابتسامتك الفاتنة. أصبحت تحاصرينني، تضغطين عليّ أكثر، فأنت لا تريدين أن تكوني مجرد كلمات في دفاتري، لذلك أترك خيالي يسبح في هواك، يبحث عنك، عن أي لحظة كنت فيها معي ولو بالنظرات، وأكتب قصص الخيال وقصائد الغزل الوهمية، ولكنك تأبين الانصياع، تشمرين عن ساقيك، تضعينهما في الماء البارد، تنظرين إليّ وتقولين:

- تخلص من شهوتك بوضعها في الماء البارد

وتضيفين:

- أتدري متى تتمكن مني

أحرك رأسي مستفسرا، فتجيبين عن استفساري الصامت بطلبك الغريب:

- بوسخشمك

أحاول كالمهرج وأنت تضحكين على تصرفاتي، وعندما أيأس، أرفع رايتي البيضاء معلنا استسلامي، وأهم بالانصراف، تناديني:

... هل انزعجت؟

فأرفض أن أرد، تقتربين مني وتطبعين قبلة على خدي، أطمع في الأكثر، فترفضين، أطلب منك أن تأخذي قبلتك أو أثأر لنفسي بأن أقبلك كما قبلتني، تضحكين بجنون، تهربين إلى حيث لا أدري، أرفع قضيتي إلى القاضي، يحكم لصالحي، ويأمرك أن تسلميني خدك لأرد قبلتك، تفعلين، وفي غفلة منك أجعل قبلتي تنحرف قليلا لتطبع على شفتيك.

وانتظرت ثورتك وإعدامي بجرمي، لكنك تبتسمين وأنت توجهين كلامك إليّ:

ما أطيب شفتيك، لم أحس بهذه اللذة من قبل

وتغمضين عينيك ولسانك يردد "زدني"

ولا يملك القاضي إلا أن يرفع الجلسة وهو يتمتم "جنون"

وأصحو من شهوة الوهم وأنت تدخلين دارك وتختلسين النظر إليّ،كما كنت ذاك الصباح وأنت تمدين خطوتك الأولى داخل دار البلدية، لم تكوني وحدك، عرفته وهو يعطيني مجموعة من الأوراق للمصادقة عليها، كان زوجك، يقف حاجزا بيننا ببنيته الهزيلة، كان رقيق العود مثلي، أتدرين أنه

أسعدني شكله الذي يشبهني، قد أكون أنا ولكن باسم آخروبطبيعة أخرى، وبسرير لا يشبه سريري الحديدي الذي لايزال يؤثث غرفتي في حيّك القديم وحيّي الوحيد منذ الولادة.

شيء ما كان لا بد أن يحدث لتلتقي نظراتنا بعد سبع سنوات من الغياب، نعم كان على القدر أن يتدخل هذه المرة ليسقط ورقة من الأوراق الكثيرة التي كان زوجك يريد ختمها، كان عليه أن يعود إلى السيارة للبحث عنها، هكذا شاء القدر أن تساهم ورقة سقطت سهوا في التقاء نظراتنا، هذه النظرات التي لم تلتقِ منذ ذلك اليوم اللعين وأنا أحمل حقيبتي متوجها إلى تبسة(٢) لأداء الخدمة الوطنية، كنتِ تراقبينني من النافذة أو ربما كنت تودعينني، كان كل جسمك يتهاوى خارج النافذة وأنتِ لا تبالين بما قد يقوله الناس، فبريق الدموع بعينيك حجب عنك الآخرين، نعم كنتِ تبكين..

عندما أذكر دموعك تلك أذكر سؤالا غريبا طرحه علينا معلم الصف السادس وهو يستضيف في ذلك اليوم معلمة متربصة لتحضر معنا الدرس:

إذا أصاب الرجل مكروه، من المرأة التي تبكيه أكثر؟

كانت كل الأجوبة تصب في قالب واحد، أمه، إبنته، أخته، عمته، خالته،..وراح الكل يبحث عن قريبة يلصق بها تهمة المعلم، أذكر أني كنت

أكثر جرأة من الكثيرين عندما أجبت (زوجته)، ربما كانت هذه أهم إجابة، إلا أنّ معلمنا كان يريد جوابا آخر لم يجده عندنا نحن الصغار، ولهذا وجه سؤاله إلى تلميذ آخر، هو أكبرنا سنا وآخرنا ترتيبا، لعله يجد غايته عنده، وكان الجواب كما يشتهيه:

إذا أصاب الرجل مكروه تبكي عليه (صاحبتو)

كان هذا الجواب النموذجي بالنسبة للمعلم، لهذا أضاف نقطتين لذلك التلميذ، وربما أضاف لنفسه مغامرة عاطفية كنا جسر عبورها.

لقد كان سخاء عينيك ذاك الصباح اعترافك الأول بحقيقة مشاعرك نحوي، وسط جو أشبه بالجنازة، وكأنهم كانوا يشيعونني إلى مثواي الأخير، الفرق الوحيد بينك وبين والدتي في تلك اللحظة، أنها كانت تحضنني بقوة وتقبلّني بلهفة، ولم تكوني تملكين أكثر من البكاء، وربما الدعاء لي بالعودة سالما، وأن لا يكون مصيري مثل مصير الكثير من الذين ذهبوا لأداء الواجب الوطني فعادوا محملين على الأكتاف في صناديق لا تشبهها إلا صناديق الشهداء.

استغليّتِ فرصة غياب زوجك للحظات، رفعت رأسك وابتسمتِ ابتسامتك الطفولية التي لم تغيّرها السنوات وأنتِ تسألين عن حالي الذي لم يبق منه شيء يستحق السؤال:

واش راك çava (٣)

إيه ça va، أسمعها كل يوم وأرد بمثلها، ولكن بماذا أجيبكِأنتِ بالذات والدنيا لم تعد كما كانت، كما لم يعد حيّنا يحتويك، إكتشفتُ هذا في أول عطلة لي عائد من تبسة، عرفت أنك انتقلتِ مع أهلك إلى مكان آخر، حاولت أن أتحايل على الجميع لأعرف سكنك الجديد ولكن لم يكن أحد يعلم، وحتى لم يكن أحد يبالي برحيلك، انتظرتُ كثيرا أمام مدرستك، ولكنك لم تعودي تخرجين منها ولا تدخلين إليها، عرفت فقط أني فقدتكِ، وأنّ لعبتي التي بدأتها معك لم تعد مجرد لعبة.. لقد أحببتك.

وأجبت عن استفسارك:

كما عهدتني.. !

امتد الصمت بيننا جسرا يعبره ارتباك الحقيقة الحمراء على وجنتيك، اكتشفتُ أنك لم تنسني، كما اكتشفتِ أنتِ من جوابي المقتضب جدا، لم تحاولي قطع هذا الصمت ولم أستطع أنا فعل ذلك، وهو يربت على قلبين يريدان أن يقفزا طربا، ولكنه طرب محرم باسم الدين والشرع وبختم وثيقة محررة منذ سنوات.

٢

بعد يومين عدتِ إلى مقر عملي، بل عدتِ إليّ، كنتِ وحدك هذه المرة، تركتِ شبيهي في مهمة خارج الولاية، وتقدّمتِ نحو الشباك الذي أجلس خلفه، سبقتك ابتسامتك، ابتسمت وابتسم قلبي مشرعا ذراعيه، محاولا أن يحتويك، قمت أحاول أن أضمك إليّ بعنف، بكل الشهوة التي تركتها بداخلي، ولكن الحاجز الفاصل بين الموظفين وبقية المواطنين حرمني حضنك، واكتفيتُ بيدك الممدودة وأنتِ تلقين عليّ تحية الصباح:

صباح الخير قيس

نعم قيس، ولكن ببذلة عصرية وبعض أبيات الغزل، وبمصير كاد أن يكون مثل مصيره، خذله عمه وقانون البداوة وخذلني العسكر ورحيل أهلك، هذا الرحيل الذي أخذك مني هو نفسه الذي جعلني ألتقيك أول مرة بعد أن غادر أهلك "الشعبة الكحلة" هروبا من الإرهاب ليستقروا عند أخوالك في حيّنا.

كنتِ في السابعة عشرة وكنتُ في عامي النهائي بالجامعة التي تأخرت عنها بعد رسوبي الأول في شهادة البكالوريا، سبع سنوات هو الزمن الفاصل بين صرختي الأولى وصرختك، وهي المدة نفسها التي يكبر بها والدي عن والدتي، لهذا كنت دائما اعتبر أنّ مقياس نجاح الزواج أن يكبر الرجل زوجته بسبعة أعوام يحقق بها قوامته.

أذكر أول يوم رأيتك فيه، كان أواخر شهر أفريل، لا أدري لما كل الأشياء الجميلة تحدث في هذا الشهر، رغم أنّه يبتدئ بكذبة، يقول عنها علماء الدين أنها بدعة لا يجوز الأخذ بها.

ولكني آمنت بكذبتك، فكنتِ كذبتي وبدعتي على الدوام. كنتِ تصغرين عن هذا اليوم بسبع سنوات وبأقل هيبة وحضور أنثوي، ولكن بكثير من السحر والجاذبية، كان شباب الحي يطلقون عليك لقب "ملكة الطريق"، ينطقونها بفرنسية مغرية تثير الشهوة المحبوسة بداخلهم "la reine de la route"، لا أدري أمن حسن حظي أم من سوئه أنّي كنتُ حاضرا ذلك المساء الذي رأيتك فيه أول مرة، أذكر ذلك جيدا، كنت أنا ويحيى وأحمد وسمير نتحدث عن كرة القدم، وإذا بصوت يأتي من بعيد:

آحمد، آي جات آي جات

وإذا بأحمد ينتفض، ينسحب من جمعنا وهو يعدّل هندامه، ويردد إحدى أغاني الراي العاطفية، اقتربتِ، وتعمد أن يقطع طريقك دون أن ينتبه إليه أحد وهو يرميك بآخر إبداعاته الغزلية:

تولي طبيبة وتداويني باطل(٤)

اكتفيتِ بابتسامة باهتة، أما أنا فضحكت كثيرا على هذا الموقف، قبل أن أوجه تعليقي لأحمد:

لو كان تستناها حتى تولي طبيبة راهي السخانة(٥)فقط تقتلك.

عرفتُ فيما بعد أن أحمد "القوشي"مغرم بك منذ أن جئتِ إلى هذا الحي قبل أربعة أشهر،كنت مشغولا فيها بإنهاء مذكرة تخرجي الجامعية كمهندس دولة في الإلكترونيك، لهذا تأخر تعرفي عليك إلى ذلك اليوم، كنتِ مشاريع لقصائد الغزل، كما كنت ذلك الصباح مشروعا لأي حماقة رجالية، وأنت تقفين أمامي بكل زينتك ومكياجك، وكأنك مراهقة تستمتع بجمالها دون أن تعلم ما يمكن أن تفعله بالموجودين حولها، وكنتُ أضغط على قلبي خوفا عليه من الانفجار، وهو يعود إلى حيويته السابقة، إلى دقات العشق الأولى، كنتُ أريد أن أنزعه وأضعه أمامك لتكتشفي أنه مازال ينبض على إيقاع حبك رغم الأنين، ورغم الزمان والهجران، ورغم الدموع والهزال وشكوى العين، ولكن فجأة وجدت نفسي أتمرد على هذا الوضع الذي

خلّفه حضورك وأكسر الصمت الذي فرش بساطه بيننا، وأرد على تحيتك بأحسن منها:

صباح النور، واش راكِ فيروز

وسرت الدهشة في عينيك من سماع اسمك على لساني، كان شيئا عظيما أن أذكر اسمك بعد هذه المدة الطويلة، وكأنك اكتشفتِ مرة أخرى أني لا أزال على عهدي اتجاهك، وسألتني بلهفة تلميذة تسمع معلمها يناديها باسمها من بين أربعين آخرين في الصف:

أتذكر اسمي؟ !

كنتُ أريد أن أسألك نفس السؤال، ولكني لم أرد أن أحرجك، وأنتِ لم تعودي تملكين نفسك، فاكتفيتُ بجواب مشفر تضعينني بعده في منصب العاشق، ولا يهم موضعك مني، وأنا ارتكب أولى حماقات السير في المنطقة المحرمة:

لحباب jamais (٦) يتنساو

أحسستُ أنّ الكلام أصبح مشبعا بفياغرا الذكريات الحميمية، ووضعك لا يسمح لك باللعب على المكشوف مع تلك الذكريات، فأردت الهروب إلى لغة أخرى، كنتِ مستعدة لها وأنتِ تمدينني مجموعة من الأوراق للمصادقة عليها، لم تكن أوراقك تحتاج لأي ختم، فهي لا تزيد عن حقيبة

تحمل بداخلها رسالة مهربة إليّ، لقد كنت في تلك اللحظة تهرّبين أغلى ما تملكين، إنه قلبك الذي ينبض داخل الرسالة.

أعترف الآن أني لما رأيت الرسالة تسقط أمامي احتقرتك بالقدر الذي أحببتك من قبل، كنتِ في تلك اللحظة تنزعين لباس الطهر الذي ارتديته زمنا أمامي لتظهري عارية في حجرة نوم محرمة عليك.

كنتِ تعرفين طبيعة الرجل الذي يقف أمامك، لهذا لم تمهليه حتى يصب حممه عليك، وأنت تلقين عليه آخر نظريات العشق:

الخيانة من أجل الحب كالخيانة من أجل العدالة.

وأضفتِ وأنا مشدودا إلى نبرات صوتك الحزين الممزوج بابتسامة تنبض عزة وكبرياء، كمن يعترف بجريمته التي ارتكبها دفاعا عن عرضه:

سيدي، جرمي البادي في عينيك ليس سوى اعترافا بأن قلبي لم يكن أبدا لرجل آخر، أما جسدي فله، نعم لزوجي ولن يكون لسواه.

لم أكن أدري أنّ الحب جريء إلى هذا الحد، وأنّ الضعف والقوة يمكن أن يمتزجا حتى لا نقدر أن نميّز أحدهما عن الآخر.

انصرفتِ مخلفة وراءك ذهولي وحماقتي، فكيف أفتح لك أبواب الماضي، وعندما تريدين الدخول أتهمك بالخيانة والعهر، أي تناقض

يسكنني، وأي نوع من القلوب قلبي، يرفعني عاليا حتى أظن نفسي من الزهاد والعابدين، وفجأة ودون سابق إنذار

يهوي بي في واد سحيق، يدخلني النار وقبل أن يشتد ألمي يرحل بي إلى الجنة، ليخرجني مع أول تفاحةالتهمها، وبين الجنة والنار يسكنني الجنون وتتملكني الحماقة.

٣

أول ليلة صادفت رسالتك كانت ليلة الجمعة، ونسبة إيماني تبلغ ذروتها في هذا الوقت من الأسبوع، لتستمر على مدى أربع وعشرين ساعة، قبل أن تبدأ في التناقص حتى تصل أدناها يومي الإثنين والثلاثاء.

رسالتكِ بقيت معلقة، فقد قررت أن لا أفتحها، فماذا يمكن أن يكون داخل رسالة مهربة كقطع الآثار غير تأكيد على ما قلته ذاك الصباح، لهذا لم أرد أن أضعف أمام اعترافك، فأنا لا أريد أن أعيش حبا مستحيلا، لا أريد وهما آخر، يكفيني ما عانيته في الماضي.

رسالتكِ كالطرد الملغوم لا يصفعك إلا إذا أردت اكتشاف سره، وسرك سيدتي محفوظ في ذاك الظرف، لهذا قررت أن أحميك من سرك وأحمي قلبي من حب لم يعد ملكه، أردت حماية سذاجتك وعهرك المفضوح داخل الرسالة، كل النساء يمارسن اعترافهن على السرير، أما أنتِ فاعترافك على الورق، والورق أكثر قابلية للاحتراق.

ثلاثة أيام بطولها وأنا في صراع داخلي بسبب رسالتك، خائف منها حد الرهبة، متشبث بها حد العشق، لا أريد أن أفتحها ولا أقدر على تمزيقها، فقط أنظر إليها، أحضنها، وفي بعض الأحيان أقبّلها، لكن هل يصمد القلب أمام اعترافك، هل يقدر أن يرفض ولادته الجديدة؟

.. وقررت أن أفتح رسالتك، أن أكسر صمام الأمان، أن أسمع اعترافك الذي نطقت به عيناك ذلك اليوم وأنتِ تودعينني من على نافذة دارك، كانت دموعك تلك تضع نقطة نهاية الجزء الأول من علاقة حب كتب لها أن تبقى عذراء حتى من تلامس أيدي صاحبيها، ولم أكن أدري أنّ لهذه القصة جزء آخر سوف يبدأ بعد سبع سنوات.

.. وبدأ الجزء الثاني أول ما وطأت قدماك دار البلدية، وها هو يشتد إثارة في اللحظة التي قررت فيها قراءة رسالتك.

الفرق الوحيد بين قصتنا وبين كل المواجهات التي لها جزآن أو شوطان أنّ الزمن الفاصل بين الشوطين في قصتي معك كان أطول، لم يكن للراحة، بل كان للعذاب والألم.

عدتُ إلى تبسة بعد أن أيقنت أنك لم تعودي تملكين الطريق الفاصل بين ثانوية أحمد باي وهذا الزقاق الذي نقطنه، ليس هناك أسوأ من تلك الأسابيع التي تلت فقدانك، كانت الخدمة الوطنية أشبه بالعذاب، كنت

حبيسك وحبيس سجن الثكنة بسبب رفضي الانصياع للأوامر، لم أكن متمردا ولكني لم أكن أقوى على فعل شيء آخر غير التفكير فيك، كنت أتهرب من مسؤولياتي اتجاه الجنود الموجودين تحت إمرتي، كما أتهرب من أوامر القيادة، كل هذا جعلني عرضة للإهانة، فوجهي يتذكر عدد الصفعات التي تلقيتها من "القائد"(٧)، لم أكن

أبالي، فيكفيني أن أرسم صورتك في مخيلتي، وأجعل من وسادتي جسدك أمارس عليه رجوليتي عندما تطفأ الأنوار، كان هزالي يشتد بسبب جلد ذكورتي كل يوم اشتهاء لك واغتصابا ليدي اليمنى التي كتبت غزلياتي فيك، لم أرد أن أخسرك شهوة كما خسرتك حضورا مميزا، لهذا لم أكن أبالي بشدودي هذا وبالألم الذي يتملك مفاصلي بعد كل لقاء يجمعني بطيفك.

طيفك الذي فقدته وأنا أفيق من غيبوبتي داخل غرفة العمليات عندما فاجأني الطبيب بسبب وجودي في تلك الغرفة:

لقد قبّلتك الموت واحتضنت الآخرين

لم تكن قبلة اشتهاء أو قبلة أم، فأي قبلة هذه التي أدخلتني غرفة الانعاش لأكثر من ثمان وأربعين ساعة؟

لم يكن الأمر هينا حتى أتجاوز صدمة تلقي خبر وفاة ١٦ فردا عشت معهم لشهور عديدة، لقد كنت الناجي الوحيد من كمين إرهابي. كانت

الساعة تشير إلى الخامسة صباحا عندما انطلقنا في مهمة نحو إحدى الغابات المجاورة من أجل محاصرة مجموعة إرهابية، كانت كل المعلومات الخاصة بتلك المجموعة متوفرة لدينا، لهذا كل شيء كان يبدو سهلا، خاصة وأن عدد الإرهابيين لم يكن يتجاوز العشرة، لم تكن تهمني المكافأة المالية بقدر أهمية الإجازة التي سنحصل عليها إذا نجحنا في مهمتنا، كنت متلهفا حتى أعود إليك، إلى تلك النافذة المقابلة لدارنا، لعلك تفتحينها من جديد وتمسحين دموعك، كنت أريد ابتسامتك، ولكن..

الجنون حطم كل الصور الجميلة ليرسم بدلها صور جثث عمار الباتني وعلي الدزيري وآخرين، متناثرة هنا وهناك، كانوا قبل يومين فقط يحملون أحلامهم الوردية، يوزعونها في كل مكان، أما الآن فلم تبقَ من تلك الأحلام إلا الذكريات، ولم أستطع التخلص من صورة أرزقي القبائلي وهو يحدثني ليلة الفاجعة: "عندما يمنحوننا أسبوعا إجازة أذهب لخطبة بنت عمي، أعلم أنّه لو تأخرت أكثر من هذا فأبوها لن ينتظرني، تعرف عاداتنا.."

لكن الإجازة أصبحت مفتوحة وسيعود أرزقي إلى بلدته ليجد بنت عمه في انتظاره بدموعها ونحيبها، ولكنه لن يستطيع أن يقول لها: "جئتك خاطبا".

لقد كانت الحادثة مريعة، وكنت بسبع أرواح(٨) كما كنتُ في المرة الأولى قبل ٢٢ سنة ولم أبلغ العامين بعد، وأنا أنهار بسبب عملية ختان لم أقدر على تحملها، حينها أعلنت وفاتي، وما كان من والدي إلا إحضار أحد الشيوخ الذين يكتبون التمائم ليترحم عليّ، تقول والدتي أنّ الشيخ طلب منها أن تقبّلني وتطلب منّي الصفح، وما كادت تفعل حتى فتحتُ عينيّ من جديد ودبت الروح في كامل جسدي، لقد شفتني قبلة أمي وأعادت زرع الروح في جسدي الصغير، لكن من يشفيني منك غير فاجعة بحجم هذه الفاجعة، لقد نسيتك أمام هذا الوجع الممتد على طول الوطن، لم يعد طيفك يزورني طوال الأسبوع الذي قضيته بالمستشفى العسكري.

غادرت المستشفى وبيدي قرار إدارة الثكنة بتسريحي من الخدمة، ربما لأنّ الإدارة لم ترد أن تحتفظ بشيء يذكرها بتلك المجزرة وأنا الشاهد الوحيد عليها، هذا ما استنتجته من كلام قائد الثكنة عندما ذهبت لأستفسر عن القرار، حينها قالي لي: "نريدك أن تنسى، هذا خير لك ولنا"

أعود إلى حضن أمي وإلى نافذة تفتح بعد أن أنهيتِقيلولتك، رفعتُ رأسي في حركة لا إرادية قبل أن ألج دارنا، كانت يداك تسبق رأسك، قبل أن يظهر وجه آخر، لم يكن وجهك، كان وحهبنت خالك، كنتُ أرسلت

ابتسامتي قبل أن أتأكد من صاحبة اليدين اللتين تشبهان يديك، ردت عليّ بابتسامة باهتة أعادتني إلى رشدي وأعادت إليّ طيفك.

لقد عاد إليّ طيفك يومها، ولكنك لم تبقي مجرد طيف وإن كنت داخل رسالة مهربة، لم يكن الأمر عاديا وأنا أفتح قلبك تلك الليلة، وضعت طقوسا للمناسبة، طقوس لا تشبه طقوس الأنبياء ولا طقوس الدجلة والمشعوذين، كانت تكفي شمعة واحدة وسط الظلمة التي زرعتها داخل الغرفة، أردت ضوءا خافتا، وكأني خائف أن تشاركني عيون آخرى قراءة رسالتك، كنت أعتبر الشمعة أكثر أمانا ورحمة على رسالتك الملغومة.

وكان سرك مفضوحا بأثار الدموع المرسومة على الورقة المتعبة بآهات كلماتك، إكتشفتُ حينها أن الصورة التي رأيتك عليها وأنت تتأبطين ذراع زوجك لم تكن إلا صورة محرّفة لامرأة تعيش أتعس فترات عمرها، ولكنها لا تستطيع الهروب، فهي مكبلة بحب رجل وهبها كل شيء، ولكنه عجز أن يملك قلبها، استنتجت كل هذا وأنا أتأمل صورة الطائر الذي يرقص في دمه، وأنت تضعين تحتها في إطار كبير قول الشاعر

لا تحسبوا رقصي بينكم طربا... فالطير يرقص مذبوحا من الألم

قرأت رسالتك أكثر من عشر مرات، وفي كل مرة أتوقف عند تلك الجملة المكتوبة باللون الأحمر "كما عهدتني أحبك"، لا أدري لما كنت

واضحة إلى هذا الحد، فكل كلماتك المزروعة على الورقة تؤكد ما قلته في تلك الجملة، لكن أن تعلنيها صراحة فهذه جرأة لا توجد إلا عند عاهرة أو عاشقة بجنون.

أعلم أنك لم تكوني إلا الثانية، لكن لماذا هذا الاعتراف في هذا الزمن المحرم، لماذا شفتاك المطبوعتان، أسفل الرسالة، لماذا تريدين بعث حلم مورس عليه الوأد منذ سنوات، ما حكاية الشفاه التي تنفخ الروح من جديد، شفتا أمي قبل ٣٠ سنة وشفتاك الورقيتان الآن؟ !

لقد عدت ليلتها عاشقا من جديد، وعادت إليّ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها، كنت ملكة الطريق فعلا، كم رقيقة أصابعك التي استطاعت أن تفلت من بين يدي عندما دخلت "الطاكسي فون" أول مرة، كم كانت حارة دموعك التي تنزل بغزارة وأنت تمدين جسدك خارج النافذة، لتزيل كل التحفظ عن شعورك نحوي.

كبلتنيرسالتك وهي تشدني بعباراتها الشهية، بدموعك النازلة من عمق القلب، بصورة الطائر الذي يتخبط في دمه، بشفتيك الورقيتين، لم تكونا من ورق، بل هما شفتاك الحقيقيتان.

قبّلتك حينها تسعا وتسعين، لم أكن على عجل، زدت واحدة ثم واحدة.. كنت أريد أن أعوّض مئات القبل الضائعة طوال سنوات

الغياب.. هل كنت تتحملين شهوتي تلك وأنا أمتص اللون الأحمر المطبوع على الورقة كإمضاء على اعترافك الذي تأخر كل هذه السنوات؟ !

٤

أتيتِ صباحا وكأنك كنت تعلمين أني قرأت رسالتك ليلة الأمس فقط..

قبلتني قبلتين..

آه.. ما أحلى القبلتين

بل ما أحلى الشفتين

وما أحلى عينيك

وشعرك الغجري

ما أحلاك "فيروز" وأنت تتنزينين لي كعروس تتزين لرجلها في لحظة حب خالدة، لم تريدي أن تطيلي الحضور، اكتفيتِ بقبلتين وتحية الصباح وموعد، ورحلتِ، لم تنتظري ردي وكأنك تدركين أني لن أرفض لقاءك، حددتِ الزمان والمكان ولم تكن لي فرصة مناقشة اختيارك: "الرابعة في ساحة لابراش"

أي جرأة لهذا الموعد، في قلب المدينة، ساحة مفتوحة على كل العابرين، أكنت تتحدين زوجك ومدينة لا زالت تتلحف في ملاءتها السوداء.

أتيتُ موعدك، بل أتيتُ موعدي الذي حددته بنفسك، سبقتني وأنت في زينة الصباح، كنت متشوقة إليّ أكثر من شوقي إلى حضنك.

قبلتان أخرتان، لقد أصبحت قبلاتك أربعا في يوم واحد، أي يوم هذا الذي تهاطلت عليّ فيه القبلات، وأي شوق اعتراك اتجاهي، بل أي فيضان جرفك نحوي وقد يجرفنا معا، كنتِ سعيدة بابتسامتك العريضة، وكنتُ خائفا من لقاء ترفضه الأعراف والقوانين، تبادلنا الأدوار، كنتُ خائفا من زوجك ومن نظرات الناس إليك، وكنتِ فقط تنظرين إليّ، تتفحصين تضاريس وجهي التي رسمتها سنوات أتعبتني بقدر ما أتعبت الوطن.

طلبتِ كوبين من العصير دون أن تسأليني ماذا أريد، فرضت عليّ موعدك ثم عصيرك، ولا أدري ماذا يكون بعد، لم أكن أهتم مادام صمتي يهديني قبلاتك الأربع وابتسامتك الدائمة، لم تمهليني حتى أصحو من غيبوبتي التي صنعتها تصرفاتك بي، سألتني:

قرأتَ الرسالة؟

بالأمس فقط

أجبتك وأنا مازلت مصدوما من كل ما يحدث لي منذ أن عدتِ من جديد، فلو كنتُ في كامل إفاقتي لأجبتك كاذبا بأنّي قرأتها قبل أن أخرج من دار البلدية، يوم هرّبتها إلي.

بدت الدهشة في عينيك، وكأنك صدمت من عدم اهتمامي، وتساءلت بنوع من الاستهزاء:

أكنت خائفا منها؟ !

أجبتك بأني خائف من حبك الذي يكبر كالطوفان، غير مبال بالحدود التي تحكمه ولا يجب أن يتعداها.

أحسستُ أن كلامي أخذ اتجاها آخر في فهمك، فأردت أن أصحح وأنا أمسك يديك الرقيقتين لأفجر بركانا بقي خامدا طوال سنوات الفراق:

فيروز.. أحبك

وسرى الاحمرار على وجنتيك كعذراء تسمع اعتراف حبيبها لأول مرة، قلتِ:

كنت أريد سماعها منذ سبع سنوات

.. وكنتُ أريد قولها يوم دخلتِ "الطاكسي فون" أول مرة.

أعدتك للماضي، للذكريات الجميلة، لصوت القلب وهو يعلن ميلاد حبه الأول.

أتدري أنّ لمسة يديك وأنت تأخذ الدينارين مازلت أحس بها حتى الآن..

فأدهشتك من جديد:

أتدرين أنّي مازلت احتفظ بالدينارين حتى الآن.

ابتسمتِ وأنت تظهرين كل سحرك على طاولة أصابتها حمى لقائنا، تدثرتِ بالصمت لحظة تفكرين ثم رفعت رأسك تنظرين في عيني وكأنك تريدين استرجاع صوّرك التي انطبعت فيها طوال الجزء الأول من علاقتنا دون إذنك، لم أرد أن أخرجك من ذاك الجو الذي وضعتنا فيه، بل لم أقدر أن أخرج من سحرك، لأول مرة اكتشفت أنّ عينيك أكبر من واحة نخيل، وأوسع من بحر، وأكبر من كل شيء،كنتُ صغيرا جدا في بؤبؤ عينيك، لم أقاوم وقد فلتت رمشة منّي حينها ابتسمت كساحرة، ثم قلتِ:

أتدري أنّ عينيك رائعتان

صدمة أخرى فجرتها بداخلي، فقدتُ القدرة على الحركة وأنتِ تأخذين مرة أخرى دفة القيادة، مارستِ كل ما كان عليّ أن أفعله كرجل اتجاه امرأة، فقد كان عليّ أن أحدد موعدنا وأطلب كأسي العصير وأن أقول لك أنّ عينيك رائعتان، ألم أقل أننا تبادلنا الأدوار، ضرباتك الاستباقية شلت كل تفكيري قبل أن تحطمه كليا وأنت تضيفين على غزلك بعيني:

قيس.. أحبك

لو كنت أستطيع في تلك اللحظة أن أحتويك بين ذراعي، فأضمك وأرقص وأرقص وأقفز بك من طاولة لأخرى، أسرق ابتسامات الحاضرين

وإعجابهم، ثم أرتشف من الأكواب المتناثرة هنا وهناك، وأرتشف من شفتيك حتى أرتوي.

أمسكتِ يدي وأنا أحاول الوقوف لأعلن على مسمع الحاضرين أني حبيبك، وهمست لي:

أحبك همسا..

آه أي همس هذا الذي يزلزل، وأي همس يحوّل الكراسي إلى ورود، ويحوّل المساحات الاسمنتية إلى مروج، هل كل همس يفعل ذلك أم فقط همسك؟ !

في يوم ما همس لك "أحمد القوشي" أنّه يحبك، فصفعته بلفظ الكبرياء "مازلت صغيرا"، عندما قص عليّ موقفك ذلك أدركت أنّ سحر الدينارين فعل فعلته وأنك ستكونين لي في أقرب وقت ممكن، قبل أن يأتي هادم اللذات ومفرق الجماعات..

ليس الموت دائما من يفعل ذلك.. بل حتى العسكر

٥

طوال أحد عشر شهرا بتبسة لا أذكر أنه مر عليّ يوم جميل أستطيع الوقوف عنده ولا حتى بعد ذلك، فالكوابيس ظلت تطاردني على مدى أسابيع، أنهض فزعا في جوف الليل هروبا من كمين إرهابي يترصدني في نومي، ولم تنفع معي أعشاب أمي ولا رقية المرقين، كانت حالتي تزداد سوءا، لا أغادر الدار أبدا، خوفا من موت يفاجئني أو قنبلة موقوتة على زمن السوق.

إزدادت الحياة رهبة ووحشة، الزبير ابن خالي غادر صباحا لاستخراج شهادة ميلاد فلم يعد، لقد أصبح من المفقودين، العسكر داهم ليلا دار جارنا وأخذ ابنه البكر بتهمة الانتماء إلى جماعة إرهابية.

أمام كل هذا لم يكن يواسيني إلا النظر إلى نافذتك، أنتظر طلتك، لكنك لم تفعليها وتركت الفرصة لإبنة خالك نادية، أحسستُ أنّها بدأت تنجذب لي قليلا وهي تضع مكياجها كل صباح لتحييني بابتسامة فاتنة، تكاد تنافس ابتسامتك، أو هكذا كنت أتخيل من فرط شوقي لك، كانت

أيامي غارقة في روتينها، أجلس في النهار قبالة نافذتك، أترقب التفاتة منك، وفي الليل أرحل إلى كوابيسي التي لم تنقدني منها إلا نصيحة إمام المسجد بأن أواظب على الصلاة فهي ملاذي الوحيد.

وبدأت أرتاد المسجد الذي لم يكن يبعد عن منزلي بأكثر من خمسين مترا، كم جميل أن نكون مرتبطين بشيء ما، بموعد ما يملأ علينا فراغنا، وكان يومي كله فراغا قبل صلاتي، لكن شيئا ما كان يحيّرني داخل المسجد، فالمصلين كلهم شيوخ، أصغرهم تجاوز الأربعين وكنت الشاب الوحيد، لدرجة أنّ كل العيون كانت ترقبني وأنا أدخل المسجد وهي تحمل الكثير من علامات الاستغراب والدهشة، كنت أتساءل عن هذه الظاهرة، ولماذا عزف الشباب عن أداء صلواتهم في المسجد وعرفت أنه الخوف من تهمة الإرهاب، ولكن التهمة كانت أهون عليّ من كوابيس الليل التي بدأت تخف شيئا فشيئا، ولم تعد ترهبني صور الجثث التي كنت أصادفها صباحا مرمية على حافة الطريق.

واستمريت على حالي الجديدة لبضعة أشهر، حتى نسيت كل معاناتي السابقة التي أصبحت مغامرة مثيرة أقصها على أصحابي بين الحين والآخر، وبدأت علاقتي بالمسجد تفتر تدريجيا حتى تقطعت نهائيا، توقفت عن ارتياد المسجد، وأصبحت أقضي معظم وقتي داخل "الطاكسي فون" الذي عدت

إليه رغم أني أصبحت أملك شهادة جامعية، ولكن الواقع أكد لي أنّه لا فرق بين التخرج وبعده وربما من حسن حظي أنّ العلاقة بين فيصل صاحب "الطاكسي فون" والشاب الذي عوضني عند ذهابي للخدمة الوطنية توترت، وإلا لما كنت تمكنت من استعادة عملي، عادت الأمور إلى بدايتها وعدت من جديد لمواصلة النظر إلى نافذتك ومبادلة إبنة خالك الابتسامة التي تطورت إلى قبلة أرسلتها مع الريح، قبل أن يصبح لنا موعدا.

لم أكن أريد أن أعيش مغامرة مع تلك التي ترقبني من نافذة تحمل كل ذكراك معي، لقد كانت تلك النافذة هي ذاكرتي، أنظر إليها فتنير العتمة الموجودة بداخلي، وتفتح لي الطريق إليك، إلى ماض لم يكن بعيدا ولكنه أصبح بطول ذاكرتي.

كم قصيرة ذاكرتي، بل كم وفية هذه الذاكرة، تختزل أكثر من ربع قرن من الوجود في إطار نافذة، ثمة تواطؤ حقيقي بين الذاكرة والنافذة، فإذا اجتمعتا لا تحيلان إلا إليك، لكنني كنت أريدك بعيدا عن النافذة وبعيدا عن الذاكرة، أريد أن أمرر يدي هذه على شعرك الغجري، أريد أن أنظر في عينيك وأربت على كتفيك، أريد أن أمسح دموعك وأنت تحولينها إلى ابتسامة صافية، عذبة شهية، كنت أُريدك أن تكوني حاضري ومستقبلي، أن تكوني صمتي وصخبي، كنت أريدك أم أولادي.

من أجل كل هذا قبلت دعوة نادية، كنت أريد أن أبحث فيها عنك، عن أجوبة لاستفساراتي الكثيرة، لكن أهم سؤال يشغلني، هل تزوجتِ أم مازلت تنتظرين رجلا ذهب لأداء الخدمة الوطنية، وعاد ليجدك قد رحلتِ، لكني عدت من أول لقاء بها مهزوما أمام شوقها الجارف لي، كنت مليكها وسيدها وحبيبها، ولم تكن بالنسبة لي إلا طريقا إليك، لكن عبوره سيحتاج إلى جهد وصبر وزمن طويل.

كان لقائي الأول بنادية حميميا جدا، كما هو الشأن في لقائيالثاني معك، الفرق الوحيد أن ابنة خالك كانت تريد أن تنحرف بي إلى غابة "جبل الوحش"(٩) ولم أكن أريد ذلك، فهي رغم فتنتها لم تستطع أن تثير شهوتي، أما لقائي معك فكان بنكهة أخرى، بطعم آخر، كانت بداخلي شقاوة تدفعني إلى ممارسة كل طقوسي الرجالية عليك، كنتُ..

أريدك غرفة ماء بين يدي

أترشفك قطرة قطرة

وأنا أقرأ المعوذتين

لنبطل حسد العيون التي تنظر إلينا(١٠)

وأروي عطش السنين على ..شفتيك

توادعنا بقبلتين أخرتين بعد لقاء لم يحضره زوجك، فالمجال لم يتسع لذكره، كنا فقط نريد أن ننظر لبعضنا، أن نعيد ذكريات الماضي الذي لم يجمعنا، كان اللقاء على وقع سنفونية عالمية صداها يملأ روحي وهي تتسامى، لم أكن على الأرض في تلك اللحظة، كنت تدفعينني إلى الأعلى، أريد الطيران، فعلا كنت أطير.

٦

وأصبح لنا موعدثابت، كانت لقاءاتنا ما بين "ساحة لابراش" وقاعة "بوالصوف"، كنت أجد راحتي أكثر في قاعة بوالصوف، فهي بعيدة عن الأعين ولا تثير الفضوليين، أعلم أنها قاعة للعشاق المراهقين، لكن ألم نكن نعيش مراهقتنا ولو متأخرين بزمن؟ كنت دوما أختار الطاولة الموجودة في الزاوية حيث تكون الإضاءة أقل، وكنتِ تتساءلين عن هذا الاختيار، فأجيبك أنّي لا أريد أن يشاركني أحد النظر إلى قسمات وجهك الساحرة، وإلى هاتين الشفتين اللوزيتين، كم كانت شهية شفتاك وأنا ألغي كل القيود، كنت مستسلمة لي بشهوة، ولكنك فجأة انتفضت من مكانك، حملت حقيبتك وتركت المكان بسرعة، وتركتني متسمرا في مكاني محاولا أن استرد وعيي وأفسر تصرفك الذي أثار فضول بعض الموجودين.

لم تكن ثورتك ثورة شك في إخلاصي لك، بل ثورة ضمير استفاق، احترمت فيك ذاك الموقف رغم ما تركه بداخلي من حزن وخوف ألاّ تعودي إليّ، مارستِ غيبتك لأيام، فهاتف منتصف النهار والنصف لم يعد

يرن، إزداد خوفي من مصير قادم، هل ستصبح عودتك الماضية مجرد حلم جميلاستفقت منه، ولم يكن أمامي إلا أن أصلي ركعتين في جوف الليل أدعو فيهما الله أن يعيدك إليّ، ألا يقول الله في حديثه القدسي أنّه ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى سماء الدنيا، فيغفر لمن يستغفره ويجيب من يدعوه، وإني دعوته، لكن أيستجيب الله لي وأنا أطلب امرأة خارج قانونه وتعد على حرمته؟

مرت أيام الأسبوع ثقيلة حزينة حتى مساء الجمعة عندما جاء صوتك عبر الهاتف ليؤكد موعد الغد (العاشرة صباحا في ساحة لابراش)

وسبقتني كعادتك إلى الموعد، كنت تلبسين فستانا طويلا على غير العادة، وكأنك تكفرين عن مجون سبت مضى، وبعد أن أهديتني قبلتيك وقبل أن تعودي للجلوس اعتذرتِ عن موقفك الأخير وأوصيت بضمير (النون) أن نحذر من تكرار خطأ الأسبوع الماضي.

كنتِ مسؤولة مثلي إذن عن تلك القبلة، لذلك لم تكن التهمة موجهة لي وحدي، أعادت إلي هذه الشراكة في الإثم كامل طاقتي وحريتي وأنا أؤكد موقفك "لن نكررها".

أصبحنا اثنين بفعل واحد، بضمير واحد، بقبلة واحدة، أصبحنا روحا واحدة، بل مازلنا روحا واحدة ولو بجسدين، جسدي الذي مل وحدته

وجسدك الذي حاولت أن أسرقه من إبنة خالك. جاءتني تعتذر عن موعدنا الخميسي لأنها مدعوة لعرسك، لكن أي عرس لك في غيابي، ففي الوقت الذي كان فيه زوجك يغلق باب غرفة نومكما لأول مرة، كنتُ أنام خلف تلك النافذة في حضن نادية التي تداعت المرض لتغيب عن عرسك وتقدّم لي جسدها الذي تخيلته جسدك، اخترت غرفتك حتى لا تفارقيني تلك الليلة وأنا التهم جسد فتاة أخرى في غرفة احتضنتك لشهور عديدة، كنت معصب العينين حتى لا أرى غيرك، لكنك حرمتني عذريتك التي وهبتها لشخص آخر، ووهبتها إبنة خالك لشخص قبلي، نعم لم يكن لي شرف التمتع بدمك الوردي على فستانك الداخلي ولو وهما، فإبنة خالك عاهرة بامتياز.

بقي يومان على موعدنا الأسبوعي، كنت أعد الأيام والليالي حتى يأتي يوم السبت، وكنت أعد الدقائق والثواني حتى يأتيني صوتك عند منتصف النهار والنصف من هاتف لا أملك رقمه، عندما طلبت منك رقم هاتفك رفضت بحجة أنك لا تأمنين جنوني، وعندما حاولت أن أقنعك أنّ أحلى لحظات العشق تكون ليلا، أجبتني بضحكة ماجنة لم أتعودها منك، وقلتِ:

في الليل أكون في حضن زوجي

لعنت زوجك وحضنه، عندها استرديت ابتسامتك الساحرة العذبة وأنت تحاولين اللعب بأعصابي:

هل تغار منه؟

نعم، كنت أغار منه قبل ذاك الصباح، عندما جاءني صوتك عبر الهاتف على غير وقته، السابعة صباحا، كان صوتك متقطعا، ممزوجا بشهقات مزقتني وأنت تلقين في أذني خبرا لا أدري حتى هذه اللحظة أخيرا أريد به أم شرا؟

لقد عثر على زوجي مقتولا داخل صندوق سيارته.

لا أدري ماذا قلتِ بعدها، فقد كان تفكيري مشلولا، أأحزن لحزن حبيبة فقدت شخصا قريبا إليها، أم أفرح لأنه لم يعد يفصلني عنك إلا أربعة أشهر وعشرة، كنت كالمعلق بين السماء والأرض، مسكين زوجك أعطى كثيرا ولم يأخذ شيئا، أعطاك كل حبه ولم يأخذ منك إلا عذرية اطمأن بها على رجولته، لم يترك قلمه الصحفي يجف كما فعل غيره، ربما كان يظن أنّ هذا من الإيمان بالوطن، فكان جزاؤه أن دفن قطعتين بعد أن فصلوا رأسه عن جسده، هل صحيح أنه مظلوم أم أنه محظوظ لأنه نام في حضن امرأة بجمالك وسحرك، ويحضر جنازته كل هذا الجمع من نخبة المجتمع،

تتقدمهم تعزية الوزير وكاميرات التلفزيون، وستكون صورته غدا على الصفحات الأولى لجرائد الصباح، هل كان يحلم بجنازة مثل هذه..

"اللهم نقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.."

يأتي صوت الإمام مجلجلا يقع في الصدور قبل الآذان، كانت تصحبه شهقات متقطعة لشاب في العشرينيات من العمر، كان يبكي بحرقة، كدت أسأله هل أنت "سلف فيروز"، ولكن لساني سبقني "آمين"، ثم تلا الفاتحة مع الحاضرين ترحما على رجل لم أره إلا مرة واحدة، ولكنه حرمني أعز ما لدي.

وأنا أضع رجلي خارج المقبرة، التفتت إلى مدينة الأموات، كانت خالية إلا من سكانها، كان آخرهم زوجك.

الآن الملك يسأله، من هو ربك؟

وأنا أسألك في نفس اللحظة، هل تقبليني زوجا بعد أربعة أشهر وعشرة؟

رسالة الذكريات ٢
من فيروزإلى قيس

١

كان والدي مضطرا إلى مغادرة "الشعبة الكحلة" بعد أن انتشر فيها الارهاب بشكل مرعب، ولم يكن أمامنا إلا الهروب إلى منزل جدي، فتنازل لنا خالي الأصغر عن غرفته حتى نتدبر أمورنا.

كان رحيلنا خلال العطلة الشتوية، كنت في السابعة عشرة من عمري، لم أكن أعرف أحدا في حينا الجديد، لهذا كنت أذهب إلى الثانوية وأعود منها وحدي، لم يكن هناك من يكلمني أو يلقي عليّ تحية الصباح، المسافة من منزلنا الجديد إلى ثانوية "أحمد باي" كانت تبدو طويلة جدا، ولم يكن يعزي وحدتي إلا كلمات الغزل التي يكرمني بها بعض الشباب، كانت تلك الكلمات ما يشغلني حتى أبلغ غايتي، كل يوم اكتشف أشخاصا يختلفون عن من التقيتهم في اليوم الذي سبقه، إلا شخصاواحدا كان يتجدد كل يوم أمامي، لم أكن أبالي في بادئ الأمر، لكن فيما بعد أثار فضولي ذاك الشخص الذي ينهض لأجلي في الساعة السابعة صباحا، وينتظرني ظهرا ومساءا، أحسست بالانجذاب نوعا ما إلى صاحب العيون الجميلة، كان وسيما جدا، تظهر عليه علامات بداية الشباب، قد يكون في مثل عمري، كنت كلما

أقترب منه أو يقترب مني أخفض من سرعتي حتى أكون قريبة منه لأطول مدة ممكنة، لم يكن يبدي أي تصرف اتجاهي، يكتفي فقط بنظراته الجريئة، حتى فاجأني ذات صباح: صباح الخير فيروز

لم أكن أنتظر أن تصل جرأته إلى هذا الحد، ربما اعتبرتها في البداية وقاحة، ورغم الارتباك الذي تملكني إلا أني كنت سعيدة بتصرفه هذا، لا أعرف من أين حصل على اسمي، ولكن هذا لم يكن يهمني، المهم بالنسبة لي أنّه معجب بي، ورغم هذا لم أرد أن أظهر أي تصرف يوهمه أني أبادله نفس مشاعر الإعجاب، اكتفيت برد تحيته مع ابتسامة خفيفة هي كل جرأتي.

كان "أحمد القوشي" يتبعني حتى باب الثانوية، يريد الانفراد بي، لكني أرفض الحديث معه خوفا أن يراني أحد في ذلك الموقف.

استمرت علاقتي بأحمد على ذلك المنوال، يستقبلني بابتساماته وعباراته الغزلية التي لا أعرف من أين يأتي بها، لكني كنت مصممة أن لا أكون موضع شبهة، خاصة أنّ الكثيرين أصبحوا يعرفون عائلتي.

وجاء اليوم الذي دخلت فيه "الطاكسي فون"، كانت أول مرة أراك فيها، أنهيت مكالمتي القصيرة وقبل أن أسألك (كم؟) أجبت (مائتين، دينارين، مفعول به)، ابتسمت من إعرابك (الدينارين) بتلك الطريقة وأنا

أمد يدي إليك فأمسكت بقطعة الدينارين وبعضا من أصابعي وأنت تشكرني بطريقة لا تريد منها شكرا، بل غزلا.

خرجت من عندك أحمل حيرتي من تصرفك، وقد علت وجهي ابتسامة لم أتبينها إلا بتعليق أحمد: واش به الزين يضحك وحدو

استفقت من غفوتي الجميلة، ولم أكن أدري أنها علامة بداية عشق سوف يكون عنيفا، يزلزلني ويعيد بعثي من جديد.

لم أستطع أن أتخلص من لقائي الأول بك، عدت إليك بعد يومين، لم أكن أريد الحديث في الهاتف، كنت فقط أريد أن أراك، دخلت المخدع، شكلت رقما بطريقة عشوائية وأقفلت بمجرد أن رفعت السماعة من الطرف الآخر، تقدمت نحوك، أعطيتك الدينارين، لم يجرؤ أحد منّا على الكلام، أعدت معي سيناريو اليوم الأول، وأعدت عليك ابتسامتي..

رحلتُ وتركتك ولكنك لم تتركني، أصبح طيفك يطاردني، همساتك تزلزل كياني، أصبحت مدمنة على النافذة حتى أراك عندما تعود أو تغادر منزلك، كنت بمجرد أن اقترب من المنزل أبعث بصري يبحث عنك، أراك مرة وأخطئك مرات أخرى، لم تحاول يوما أن تقطع طريقي، أو تتبعني حتى باب الثانوية، كنت تكتفي بابتسامتك المغرية، وبإشارات لم أستطع فك رموزها، لكني كنت متأكدة أنها تعبير عن إعجابك بي، أحسست أن حبا

صامتا يسيطر على قلبينا، كنت سعيدة بحبك في الوقت الذي أصبحت تصرفات "أحمد القوشي" تستفزني رغم أنه لم يتعد حدود اللباقة، كنت أعتبر أنّه ليس من حقه مغازلة فتاة هي ملكك أنت، ولكني لم أجد الطريقة التي أوقفه بها عند حده حتى جاءني ذات صباح يريد محادثتي كعادته، كانت فترة امتحانات، وجدته ينتظرني عند باب الثانوية، طلب مني فرصة للحديث، تشجعت هذه المرة لأجلك، وسمعته يقص عليّ معاناته وحبه الجارف لي، كان عليّ أن أضع كل شيء في موضعه، فالخيار محسوم لصالحك، رغم أني لم أقصد إهانته أو استصغاره، ولكنها الوسيلة الوحيدة لأكون لك وحدك، قلت له "مازلت صغيرا".

رأيت وجهه بعدها يشتعل احمرارا، وعينيه تطرح ألف سؤال، ولكنه لم يكن يدري ما يرد به، اكتفى بطلب المعذرة وغادر، لم أندم على تصرفي هذا، فأحمد تخلى عن ملاحقتي وترك المجال واسعا لك، لكنك بقيت بعيدا، كلامك عيناك وإشارات يديك، كنت أريدك أن تقطع عليّ الطريق، أن تمسكني من يدي وتقول "أحبك"، لكنك لم تفعلها، وبقيت صامتا، حتى كنت أحدث نفسي بأنك ربما تكون أبكم، لكني أعود فأتذكر ما حدث في "الطاكسي فون" فأضحك على نفسي وعلى تصرفاتك، فيزداد القلب اشتعالا دون أن يملك القدرة على البوح.

٢

كنت أطل من النافذة حين رأيتك تغادر منزلك، كنت تحمل حقيبة السفر، كانت تتبعك أمك وكل أهلك في طقوس جنائزية، التقطت أذني جملة عابرة عرفت منها أنك ذاهب إلى العسكر، كانت طعنة مسمومة تشق أضلعي، لم أنتبه إلا والدموع تنسكب بغزارة، كنت أبكيك وأبكي أخي البكر الذي اغتاله الإرهاب قبل شهور عندما كان في عطلة من خدمته العسكرية، كنت أريد أن أصرخ، لكن الكلمات توقفت بداخلي، كنت أراك ممدا في نعشك وأنا في ثوبي الأبيض أبكيك بحرقة والناس من حولنا يتهامسون (ترملت قبل دخلتها)، كنت تسترق النظر إليّ ولم أكن أنظر إلا إليك، أسمع صراخ والدتك الذي يخرج من أعماقي، نزعتَ يديّ خالتي يمينة التي كانت تحتضنك بقوة وانطلقتَ تجري بعيدا... إلى العسكر.

أغمي على والدتك في تلك اللحظة، وقاومت انهياري بصعوبة، لم تتوقف دموعي عن الجريان طوال الأيام الموالية، كانت أمي عندما تسألني

عن سبب بكائي المفاجئ أخبرها أنك ذكرتني بأخي محمد، فلا تملك نفسها والدموع تنهمر من عينيها، كانت أمي تبكي ولدها وكنت أبكيك ولا أدري أنك ستعود إلى حيّك لتجدني رحلت بعيدا.

بعد شهر أخبرنا والدي أننا سنغادر منزل جدي، فعرس خالي على الأبواب وعلينا أن نترك له غرفته، ظروف أبي المادية لم تكن تسمح باستئجار بيت وسط المدينة، لذلك اختار أن يكون بيتنا الجديد بإحدى البلديات البعيدة.

أصبحتُ بعيدة عن جدار بيتك بخمسين كلم بعدما كان لا يفصلني عنه إلا متران، أما أنت فلم تزد إلا قربا بعد أن شغلت أوراق كراريسي عندما أعود إليها كل مساء للمراجعة لامتحانات البكالوريا التي لم يعد يفصلني عنها إلا أسابيع قليلة.

كنت متيقنة أن وجود اسمي ضمن قائمة الناجحين ضرب من الخيال لأني طوال العام لم أراجع إلا قصتي معك منذ أول يوم دخلت فيه "الطاكسي فون" إلى يوم حملت حقيبتك متوجها لأداء الخدمة الوطنية، مرورا بقصص أنسجها وهما واشتياقا لك.

ورغم ذلك فقد بكيت طويلا يوم إعلان النتائج، وهو اليوم الذي تعرفت فيه على زوجي.

كنت منعزلة في أحد أركان الثانوية أبكي نتيجتي وإذا به يتقدّم نحوي ويسألني:

أتبكين؟

رفعت رأسي لأتعرف إلى صاحب الصوت وأنا أمسح دموعي:

وما يهمك أنت من بكائي؟

عرفني بنفسه، صحافي جاء من أجل إنجاز روبورتاج عن ردة فعل الطلبة بعد نتائج البكالوريا.

لم أتمالك نفسي وغرقت من جديد في دموعي، وإذ بي أسمعه يقول:

أتدرين أنه لو تكلمتِ ساعتين لما قلتِ ما تقوله عيناك.

وأخرج منديلا ورقيا مدني إياه وهو يترجاني أن أمسح دموعي، أمسكت منديله وأنا أسأله:

أنت عندك"الباك"؟

ابتسم محركا رأسه إيجابا، فعلقت على إجابته تلك:

لأجل هذا لا تحسونا بنا.

لم يرد أن يبدأ معي مناقشة لا فائدة من ورائها، بل دعاني للقيام بجولة أروّح بها عن نفسي، قبلت عرضه، واستمرت جولتنا النهار بطوله، أعطاني بطاقته لأتصل به إن احتجت شيئا.

كان هذا هو اللقاء الأول الذي مهد لعلاقتي المستقبلية برضا، ورغم كل ما أبداه من اهتمام بي إلا أني نسيت لقاءه هذا بمجرد أن عدت إلى المنزل.

كان الرجل الوحيد الذي يملأ فراغي هو أنت، فحتى بعد رحيلنا كنت أذهب في زيارات لدار جدي، فقد يصادف وجودي هناك عطلتك، لكن القدر كان يعبس دوما في وجهي فأعود خائبة لا يواسيني إلا عدم ذكر اسمك بين أخوالي، وهذا ما كنت أعتبره دليلا على أنك لا تزال حيا.

كان الصيف مؤلما جدا في تلك البقعة التي اختارها والدي مكانا لسكننا الجديد، كنت أحس بضيق شديد بعد أن يتسلل اليأس إليّ من إمكانية أن ألتقي بك مجددا، لا أجد فرقا بيني وبين نفيسة في "ريح الجنوب"(١١) وكثيرا ما أجد نفسي أردد مقولتها "كل الطلبة يفرحون بعطلهم، أما أنا فعطلتي أقضيها في منفى..)، كنت كثيرا ما أجلس أمام النافذة أنتظر صوت ناي رابح الراعي، لكنه لا يأتي كما كان يفعل مع نفيسة، ويأتي بدله الهم الشديد الذي يكاد يفجرني، فأبكي بحرقة على هذا المصير الذي أحياه، ولم يخرجني من تلك الوضعية إلا بطاقة عثرت عليها في دفاتري كتب عليها رقم هاتف لصحافي، كانت بطاقة رضا، فكرت أن أتصل به لعله يسليني في هذه الظروف كما فعل يوم إعلان نتائج البكالوريا.

...والتقيت به من جديد، كان متلهفا لرؤيتي، أخبرني عن توبيخ رئيس تحرير الجريدة لأنه تأخر في إنجاز الروبورتاج بسببي، حدثني عن طموحاته في العمل بإحدى دول الخليج بعد موضة انتشار القنوات الفضائية، كان يحمل طموحات كبيرة، كنت مشدودة إلى طريقة حديثه، إلى ثقافته الواسعة وإلى عينيه الزرقاوين..

تعددت لقاءاتنا ولم تعد مجرد لقاءات للهروب من روتين بقعتنا المنسية، كان شيء ما يدفعني إليه وكان ينجدب نحوي بقوة، لا يخفي مشاعره، فكثيرا ما عبّر عن إعجابه بي، كنت في بادئ الأمر أعتبر كلامه مجرد مجاملات رقيقة تفرضها طبيعة اللقاءات، لكني وجدت نفسي وسط عاصفة حب عنيفة، لم أكن أدري أنها عاصفة وهمية، ومع ذلك كان يقتلعني منك بالقوة وهو يطلبني للزواج.

لم أعطِ نفسي فرصة للتفكير أو حتى استشارة والديّ، وافقت على الفور وتم الزواج بعد ثلاثة أشهر فقط.

٣

انتقلت للعيش مع عائلته في حي "الفوبور" أو كابول كما يسميه أهله، كنت عندما أسأل رضا عن سر هذه التسمية يكتفي بالقول أنّ الجزائر كلها كابول، ولكني عرفت أولى ملامح هذا التشبيه ليلة عرسي عندما لم يحضر أهل العريس لوضع الحنة في يديّ على عادة أهل المدينة التي تجبر أهل العريس على تخضيب يدّي عروسهم ليلة العرس، ولكن أهل زوجي خانوا المدينة بتواطئ مع عائلتي بسبب الظروف الأمنية المتدهورة، وعرفت أنّ "الفوبور" يغلق أبوابه بعد صلاة المغرب مباشرة، وهذا ما حتم أن تكون وليمة عرسي "غداءً" وليس "عشاءً" وهي خيانة أخرى لطقوس الأعراس.

لأول مرة أرى عروسا تزف في العاشرة صباحا، كانت أنا.

كانت المدينة غارقة في حزنها الدامي وكنت سعيدة في ثوبي الأبيض وبمنبهات السيارات التي تملأ الطريق صخبا معلنة زفافي غير مبالية بجراح الوطن، وكنت أقول في نفسي أنّ (الفرح أسبق من الحزن)، كنت مزهوة بحالي قبل أن يمر طيفك، هكذا دون مقدمات ودون استئذان، كنت تلبس

بذلتك العسكرية، لم يكن زيك مرادفا للموت هذه المرة، كنت معتزا بنفسك وكأنك تقول لي (أنت الخاسرة بقرارك هذا)، وقبل أن تواصل غرورك وتهجمك عليّ أنقذتني منك وكزة أختي التي تجلس بجانبي الأيمن وهي تخبرني بوصولنا إلى داري الجديدة، كانت أختي مكلفة بمرافقتي رفقة أخت زوجي وهي عادة أخرى، لم تتعرض للسطو هذه المرة.

الليلة أعظم الليالي في حياة أي امرأة، و"في حياة أي رجل أيضا" أضاف زوجي، دخلتُ غرفتي مع زغرودة أمي الجديدة، لا أدري لما قررت أن ادعوها أمي، ربما بسبب الحنان الذي دثرتني به طوال فترة الخطوبة.

أنهت "أمي" وصلتها التي تجيدها كل النساء وكأنها أنهت كل الفرح الذي كان يسكنني، أحسست بقشعريرة تدك أضلعي على وقع المفتاح الذي أداره زوجي في قفل الباب، ارتعشت كجسد محموم وأنا اتهاوى على السرير، وخفق قلبي بشدة كأنه تذكر جزءه المريض، لقد تذكرتك أنت، كنت بحاجة إلى أكثر من وكزة أختي هذا الصباح حتى تعيدني إلى طبيعتي وإلى الجو الجديد الذي وجب عليّ أن أحياه.

كان زوجي في تلك اللحظة يصلي ركعتين اقتداء بالسنة، فكثيرا ما كان يؤكد لي أن زواجنا سيكون بلا صخب حتى يباركه الله وأنه سيصلي ركعتين ويدعو دعاء من دخل على زوجته ليلة عرسه.

كان رضا يحب التمسك بالكثير من المبادئ الإسلامية رغم أنّه لم يكن من الملتزمين بواجباتهم الدينية، حتى أنه لم يطلب مني ارتداء الحجاب.

وجاءت اللحظة التي أخشاها، كنت ممدة كجثة غادرتها الروح وكفريسة شلها الرعب وهي ترى مفترسها يستعد للانقضاض عليها،أغمضت عينيّ غير مكترثة بما ينتظرني..

..وسلمته الجسد، لم أكن أملك القدرة على المقاومة، كان الجرح ينزف بداخلي قبل أن يطال عذريتي، عذريتي التي كنت أريد أن أقدّمها لك هدية زواجنا فإذا بها تذهب لرجل آخر على وقع زغرودة والدته وهو يحمل إليها البشرى.

تمادت العجوز في بعث زغاريدها في أرجاء البيت قبل أن يخنقها صوت الرصاص المدوي في الخارج، تمنيت أن تخترق إحدى الرصاصات جدار المنزل لتستقر بجسدي المحموم لعله يستريح من وجعه.

أسرع أهل البيت لإطفاء الأنوار التي كانت لاتزال متلألئة على غير العادة وأسرع زوجي ليطمئن عليّ، قبل أن يهمس في أذني "مبروك علينا"، كان يباركني عذريتي التي هتكها في لحظة اغتصاب مشروعة، لم يبقَشيء أقدمه لك، لهذا قررت أن أتعايش مع الوضع الجديد.

٤

الليلة العظمى مرت ومنحتني بطاقة القبول في العائلة الجديدة، حاولت أن أندمج معها، أتعلم من سيدتها وأسلي نفسي ببرامج التلفزيون والكثير من الكتب التي يملكها رضا، أصبح الجو روتينيا وتعودت على حياتي الجديدة وعلى صوت الرصاص الذي يذكرني بأيام "الشعبة الكحلة"، كان زوجي سعيدا بحياته معي وبنجاحاته العملية، رقي إلى منصب رئيس القسم السياسي بالجريدة، كانت مقالاته نارا مشتعلة في وجه الارهاب، تخلى عن أحلامه بالعمل في دول الخليج، كان يقول لي "إذا رحلنا جميعا من يعري الارهاب" وكنت أرد عليه "بل لن يجد الارهاب من ينقل جرائمه إلى العالم"

في هذا الوقت كانت عمليات اغتيال المثقفين تزداد انتشارا وكانت تصل زوجي الكثير من رسائل التهديد، ولكنه لم يكن يبالي حتى وصلته قارورة عطر وكفن، في تلك اللحظة فقط أدرك أنهم قرروا اغتياله.

أصبح لا يعود إلى المنزل إلا نادرا،خاصة بعد مقتل نجم الغناء الشاب عزيز على بعد أمتار من منزلنا، كانت الجريمة التي حطمت آخر ما تبقى من

صمود رضا، فالمتشددون يضعون الصحافيين والفنانين في مرتبة واحدة، وكان زوجي من المقربين من الشاب عزيز بحكم أنّهما في عمر واحد وكانا جارين لفترة طويلة قبل أن ترحل عائلة الشاب عزيز إلى حي آخر، كانت الصدمة كبيرة، فالرصاصات التي وصلت إلى نجم كبير مثل عزيز لن يكون صعبا عليها أن تخطف روح صحافي بلا حماية، فالدولة لم تخصص محمية لهم كما فعلت مع زملائهم في العاصمة، بعد هذه الحادثة أصبح رضا يبيت إما في مكتبه أو عند أحد أصحابه، وبقينا على هذه الحال لأكثر من أربعة أشهر لايزورنا رضا إلا مرة في الأسبوعين، يأتي خفية ويعود خفية، قبل أن يقرر أن نرحل إلى مكان آخر أكثر أمنا، كانت إمكانات زوجي المادية تسمح له بتأجير منزل في وسط المدينة.

رحيل آخر داخل هذه المدينة، لم أكن أدري أليقربني منك أم ليزيدني ابتعادا، رحلت مع زوجي ورفض بقية أفراد العائلة مغادرة "الفوبور".

كان هذا موسم الرحيل أو قل موسم الهروب، نهرب من مكان لآخر وكأننا نحاول الهروب من أقدارنا وفي الأخير لا نملك إلا أن نرضخ لمشيئتها.

غادرت "الفوبور" كما غادرت من قبل أحيائي القديمة، كنت مجبرة مرة أخرى لعلي أنهي حكايتي المثيرة، وأبدأ حكاية أخرى مثل كل الحكايات، حكاية لا تستحق أن نقصها على غيرنا أو نكتبها في سجل الذكريات، لكن القدر كان يخطط لشيء آخر، لحكاية أخرى أكثر إثارة وتشويقا وأكثر إيلاما.

بدأت حكايتي الجديدة وأنا أدخل قلب المدينة متأبطة ذراع زوجي الذي يكبلني بقدره.

"كم جميل أن يكون قدرنا من قدر الوطن ولو كان موتا"

قلت لزوجي مرة تعليقا على عبارته هذه ونحن نشاهد صورا عن مجزرة بن طلحة..(١٢) (ألا ترى أنّ الموت قدر عادل في تعامله مع الناس؟)، وأضفت (ألم يقدّمه لنا الارهاب دون استثناء فساوى بين فقراء الوطن وأغنيائه، بين رؤسائه ومرؤوسيه، بل كان أكرم من ذلك بكثير، أكان يحلم أهل بن طلحة أن يشيّعوا أمام كاميرات العالم، لقد كانوا يحيّون ويموتون ولا يسمع بهم أحد...أكنت تعرف منطقة يقال لها بن طلحة، أكيد لم تكن تعرفها ولا تسمع حتى باسمها، ولكنها الآن مدينة زارت كل بقاع الدنيا، ونطقت باسمها كل لغات العالم، ألا ترى أنهم يشيعون على طريقة القديسين والشهداء، أليس هذا من مزايا الارهاب)، لم أكن مقتنعة بكل ما

كنت أقوله لزوجي، ولكني أحاول الهروب بهذا الحديث حتى لا يجمعنا حديث آخر.. وأي حديث يجمع رجلا وامرأةداخل غرفة مغلقة؟

كان صعبا أن ألبس ثوب الأنوثة وأرمي بجسدي في أحضان رجل لا تجمعني به إلا ورقة صادقت عليها في لحظة لاوعي من عمري.

كنت أهرب إلى أحاديث طويلة ومعقدة فأناقش رضا في مقالاته اليومية، وأطرح الكثير من الأسئلة ولا يملك رضا إلا أن يسايرني محاولا إقناعي بمواقفه فيسترسل في الحديث والليل لا ينتظر، يمضي سريعا، يحمل همومي وخيبات زوجي الذي طغت اهتماماته الصحفية على غريزته، فأنهض صباحا وليس في جسمي شيء من رجولته.

كانت فتنة الوطن هي المخدر الذي أضعه في قهوة زوجي، فينسى غريزته ويغوص في الحديث عن هذه الفتنة، يحلل ويناقش ويصرخ ويبكي أحيانا.

كنت أحس بألمه وهو نفسه ألمي، ولكني لا يمكن أن أخرجه منه لأنه لا طريق آخر للخروج إلا جسدي.

رغم كل هذا فإنّه كان لابد أن يأتي اليوم الذي ينزل فيه القلب من عليائه، ويوقع كما وقعت أصابعي على تلك الوثيقة التي جمعتني بزوجي، كان على القلب أن يتعرض لصدمة عنيفة تزلزله وكانت الصدمة بأن أرى

رضا محمولا على الأكتاف، كنت أراه ميتا وأهل الحي يدخلون به الدار، في تلك اللحظة فقط أحسست بمعنى أن تفقد المرأة رجلها، بكيته بشدة وبصدق كان يختبئ بداخلي، ولكن زوجي لم يكن كما ظننت، فالصدمة كانت شديدة عليه، وهو يرى رصاصتين تخترقان رأس صاحبه.

كنت أبحث عن أسباب اغتيال عامل بشركة التبغ والكبريت، ما هو الضرر الذي يلحقه بهم؟ ولكني لم أجد إلا فتاوى تحريم السجائر.

عرفت الحقيقة بعد يومين عندما تلقيت رسالة باسمي كان صاحبها يعزيني في زوجي الراقد في فراشه منذ ذاك اليوم، عندها فقط أدركت أنّ الرصاصتين أخطأتا العنوان فبدل أن تستقرا في رأس رضا أصابتاه بالحمى.

في تلك اللحظة فقط أدركت لما رحل الصحافيون والفنانون خارج الوطن وقرر آخرون الصمت فالصمت حياة.

٥

ازدادت حالة رضا سوءا وازداد هزاله وشحوبه، ونصحني الأطباء بأخذه إلى مكان هادئ لا يكون فيه رصاص، وأي مكان داخل الوطن لا ينام أهله على صوت الرصاص، لم يكن أمامي من حل إلا الرحيل من جديد، ولكن هذه المرة إلى خارج البلاد.. إلى تونس.

كانت تونس أبعد ما تكون عن الوطن، فرغم أنّ العالم أصبح قرية صغيرة كما يقولون إلا أن ظروف زوجي الصحية أجبرتنا على العيش في عزلة تامة، حتى لا نتصادم مع الأخبار التي تثيره، ولم يعد يربطنا بالوطن إلا مكالمات مدير الجريدة الذي يطمئنعلى صحة رضا بين الفينة والأخرى، وكذلك هاتف والدتي ذات صباح وهي تزف إليّ بشرى ورود اسم والدي ضمن قائمة المستفيدين من سكن اجتماعي بالمدينة الجديدة، كانت تطير فرحا وكأنها ستنتقل للعيش في فيلا فاخرة، رغم أن بيتها الجديد لا يزيد عن غرفة ومطبخ، إلا أنّ هذا ما كان ليقلل من سعادتها، فالمهم بالنسبة لها أن تعيش في منزل ملكها ولو كان غرفة واحدة من "ترنيت"..(١٣) كما تقول،

فما حاجتها للفيلا ولم يتبق من أبنائها إلا أختي الصغرى بعد أن رحلت أختي الثانية مع زوجها إلى العاصمة.

قطعت والدتي المكالمة بعد أن أخبرها صاحب "الطاكسي فون" أن ثمن المكالمة تعدى ما كانت تحمله من نقود، كنت أتخيل أمي في تلك اللحظة تقف أمامك، تعتذر منك على أنها لم تكن تحمل ثمن المكالمة كاملا، إبتسمتَ لها وأنت تتنازل عن ما تبقى لك من نقود عندها، ليس لأجلها ولكن لأنها والدتي، ولم تكن إلا أن تدعو لك "ربي يبارك فيك يا وليدي ويجيب لك بنت الحلال".

هكذا قدري معك يعود في اللحظة التي أظن أن علاقتي برضا توطدت أكثر، عدتَ إليّ وأنا أزف إليه، وعدتَ في تلك الليلة العظيمة وها أنت تعود الآن في أشد حاجته إليّ، وكأنك ترفض أن تتلاشى من مخيلتي، فهل كنت قدري الحقيقي وما كان طيفك إلا مشاهدَ تحضيرية لتلك اللقاءات التي جمعتنا في تلك الساحة المفتوحة على صحافة المدينة، طيفك ذاك الصباح لم يمكث طويلا، ربما هرب من صوت زوجي القادم من غرفة النوم يطلبني.

هل يكون القلب دوما ضحية صراعاته، هل يكتب له أن يميل إلى جهة بدل أخرى تشده بقوة ولا تريد التفريط فيه، كيف أفسر هذا

الاحساس الغريب اتجاه رضا وهو يقبلّني ويهنئني بعيد ميلادي معتذرا على أنّه لا يملك هدية يقدّمها لي، أيمكن أن يكون الحب عجيبا إلى هذه الدرجة حتى يوقظ مريضا من غيبوبته فقط لأنه تذكر أن اليوم هو عيد ميلاد حبيبته؟

كنتُ حائرة وسط هذه الصراعات التي تنهش داخلي، كنتُ حائرة بين رجل جعلته الأعراف والتقاليد والشرع زوجا وبين رجل لا يأتيني إلا طيفا يذكرني بوجعي ولو كان في عيد ميلادي.

شفي رضا تماما وعاد إلى حالته الطبيعية، أصبح يقرأ الجرائد ويتابع نشرات الأخبار، بل أصبح متلهفا للعودة إلى أرض الوطن، كنت خائفة عليه فأحاول خلق الأسباب من أجل البقاء، ولكن إصراره على العودة وإكمال مسيرته كان أقوى فعدنا من جديد وكانت في استقبالنا رسالة تحمل تهديدا بالموت دست تحت الباب، كنت أول من رآها لذلك أخفيتها عن زوجي خوفا أن يعود إلى حالته السابقة، لقد عرفوا أنهم أخطأوا الهدف في المرة الأولى وسيحاولون تصحيحه.

كنت أظن أنّ الأزمة التي مر بها رضا أذابت الجليد الذي كان يلف قلبي اتجاهه، ولكن القدر كان يحضّر مفاجأة أخرى أسبوعا فقط بعد عودتنا من تونس، في ذلك اليوم كنا في زيارة عائلية لجدي الموجود على فراش

المرض، لا شيء تغيّر في ذلك الحي، كنت متلهفة أن أمر أمام دارك، أن أقبّل جدرانها، فقد قرأت عن شاعر كان يقبّل جدران بيت صاحبته حبا لها، وكنت أريد أن أفعل ذلك حبا وشوقا لك، لكن لم أجرؤ واكتفيت بأن مسحتها بعيني، كنت أنظر إلى الأبواب والجدران وإلى عتبة بابك التي كثيرا ما كنت تجلس أمامها وأنت تسترق النظر إلى نافذتي، تلك النافذة التي اكتشفت أنها غيّرت لونها، تملكني إحساس بأنّ من فعل ذلك بنافذتي أراد فصلك عني ومسح صورتي التي التصقت بالنافذة.

وقفت أمامها طويلا، استرجعت كل ذكرياتي معها بل ذكرياتي معك، فهي الشاهد الوحيد على نظراتك نحوي وعلى دقات قلبي المتسارعة لحظتها.

أقفلت كتاب الذكريات الممتدة من لحظة ذهابك إلى الخدمة الوطنية حتى هذه اللحظة التي أقف فيها أمام نافذتي، تأملتك من جديد، استرجع ابتسامتك الساحرة وهمس شفتيك اللتين لم يصلني كلامهما،وصورة يدك التي كانت تضغط على أصابعي في لحظة جرأة غريبة منك، ولكنك لم تكن بتلك الجرأة وأنتَ تسترق النظر إليّ في آخر مرة التقت فيها نظراتنا، كان ذلك عند نهاية الشوط الأول من مغامرتنا كما تقول أنت، سبع سنوات مرت أمامي ذلك اليوم وكأنها سبع دقائق أو سبع لحظات، عمر كل واحدة

منها طرفة عين تمتد من نافذتي إلى جدران دارك، تلك الجدران التي كنت أنظر إليها بخشوع المصلين، وكأنها آخر مرة يمكنني النظر إليها، ولم أكن أدري أنّ القدر أكبر من أحاسيسنا وأحلامنا ومخططاتنا وهو يرسم سيناريو لقائنا في شوطه الثاني.

فجأة وقبل أن تعبر سيارة زوجي حدود حيك الأزلي تذكر أنّ له وثائقَ عليه أن يختمها في دار البلدية، وكانت أقرب بلدية إلينا تلك التي تحتويك.

غادرتَ إذن "الطاكسي فون" لتصبح موظفا في دار البلدية، بمرتب يقل عن النصف مما كنت تتقاضاه من عملك السابق، لم تكن نقلة خاسرة في نظرك، فالبلدية توفر لك حق الانتساب إلى صندوق الضمان الاجتماعي وهذا ما لا يحققه لك صاحب "الطاكسي فون"، وأضفت لي سببا آخر عندما سألتك بعد ذلك عن هذا الاختيار، قلت لي أنّ العمل عند الدولة أشرف من العمل عند شخص مثلك، خاصة إذا كان أقل مستوى منك، وأنت خريج جامعة، أما صاحب "الطاكسي فون" فلم يكمل دراسته الثانوية.

هكذا إذن تفكر، وكأنك لا تدري أنّ دار البلدية ستصبح يوما ملكا لشخص قد يكون أقل مستوى من صاحبك الأول ولكنه بالتأكيد أكثر منه مالا ونفوذا، هل ستقدم استقالتك لتبحث عن مؤسسة تملكها الدولة لتعمل فيها، ستموت جوعا وقتها.

شيء ما كان يشعرني بالخوف والرهبة وأنا أمد خطوتي الأولى داخل مقر عملك الجديد، ما جعلني أتشبث بذراع رضا بطريقة جلبت انتباه الكثيرين إلينا.

عادت المسافة بيني وبينك كما كانت قبل سبع سنوات، فقط مترين، تأملتك جيدا وأنت تحدث زوجي، لقد كان طيفك يخدعني لأنه لم يكن صورة منك، بل كان صورة لرجل آخر يشبهك، صورة عمرها سبعة أعوام كاملة تمثل الزمن الفاصل بين يومنا هذا ويوم مغادرتك نحو الخدمة الوطنية، لقد تغيّرت كثيرا، أي حروب مرت عليك، وأي المواقع عبرت، أين وجهك الزهري وأين ملامحك المغرية.. أين أنت، كنتَ شخصا آخر تلبس قناعا أخفى كل وجهك، لكنه لم يستطع إخفاء أبرز شيء فيك، تلك النظرات نفسها لم تتغير، مازالت مليئة بالحب والحنان ولكن بكثير من الدهشة هذه المرة، سألتك فيما بعد:

أفاجأتك حقا ذاك الصباح، أكنت تتوقع أن نلتقي من جديد؟

"غير الجبال اللي مايتلاقاوش"..(١٤)، أجبت

ونحن لسنا بجبلين، قد تكون تحمل الكثير من شموخ الجبال وربما عظمتها، ولكني كنت مستعدة أن أطوف العالم لأصطدم بك، لم أكن أريد أن يكون لقاؤنا على طريقة الأفلام العربية رغم أني كنت أبحث عنك أمام

عتبة دارك وعلى الرصيف الذي كثيرا ما جلست عليه تنتظرني في بداية عشقنا الأول.

عندما استرجع سيناريو لقائنا الجديد أجد أن من كتبه أكبر من سيناريست وأكبر من كاتب، بل أكبر من القدر نفسه، فكيف نفسر ما حدث، لماذا نسي زوجي ختم أوراقه من قبل، وكيف تذكر ذلك في تلك اللحظة ونحن على مشارف حيّنا القديم، ولماذا دخلنا تلك البلدية بالذات، ولماذا نسي زوجي إحدى أوراقه في السيارة حتى التقت نظراتنا من جديد؟ !

الدهشة لم تصبك وحدك، لكني احتراما لزوجي حاولت أن اتماسك أمامه وأن أكون أكثر هدوءا أمامك، أتذّكر أني لم أخاطبك باسمك وأنا اسأل عن صحتك، كان ذكر اسمك هو الحد الفاصل بين هدوئي وبين بركان يكاد ينفجر شوقا وحبا ودهشة أمامك، أخمدت كل شيء بداخلي إلا ابتسامة خرجت دون أن تستأذني.

في تلك اللحظة كنت أبحث في أصابعك عن خاتم الخيانة كالذي ألبسه، كان بنصرك مجردا من أي شبهة، كان على العهد مع تلك النظرات التي كانت تصرخ (سأعود إليك) وأنتَ ذاهب إلى العسكر.

أدركتُ أني ظلمتك وأن هذه الملامح الباهتة التي أصبحت تحملها ليست سوى ضريبة الوفاء..أليس اسمك قيسا؟

غادرتك وأنا لا أحمل من تلك اللحظات التي جمعتني بك إلا طيفك الجديد ونظراتي على خاتم لم يصنع أصلا.

لم تفارقني ذلك اليوم، كنت أرقي وشهيتي الوحيدة، كان عليّ أن أفعل شيئا لأجلك، لأرد دينك عليّ، فلم أشعر إلا وأنا أغادر السرير لأكتب لك شهادة اعتراف بأني لم أخنك بالغيب كما لم تخني، أقسمت أمام نفسي وأمام تلك الورقة البيضاء بأن أعلن عن كل مشاعري نحوك دون زيف أو نفاق، وضعتُ نقطة النهاية لتلك الرسالة المبللة بأوجاعي ودموعي، لكن شيئا ما كان ينقصها، كنت أريد أن أختمها بختم البلدية لأؤكد بأن حبي لك قانوني وإن خالف الأعراف والتقاليد، ولم أجد إلا شفتيّ، فهما أصدق من كل أختام الدولة الرسمية.

وضعتُ اعترافي بين يديك فطعنتني بتلك النظرات، كانت أشد ألما من كل أوجاع الماضي، لم أكن أتوقع أن تخلط بين مشاعري وجسدي، فروحي وقلبي وهبتهما لك منذ سنوات ولن أستردهما ولو أردت، أما جسدي فهو حبيس فتوة رجل آخر امتلكه بشاهدين وبمباركة أهلي وبكلمة خرجت من فمي في لحظة كنت أظن أني في كامل قواي العقلية والنفسية..(قبلت).

عندما أعلن ضابط الحالة المدنية تمام العقد كنت أسعد امرأة، بل أسعد من كل الناس،حتى أسعد من رضا الذي كان يقول (جنتي على هذه الأرض أن اجتمع بكِ تحت سقف واحد)، كنت أتخيل ثمانية ملايين امرأة لم تستطع أن تحصل على زوج وأنا حصلت عليه ولم أبلغ التاسعة عشرة، كنت سعيدة بشبابي وأحلامي التي بدأت تكبر وأنا أرى أطفالي يلعبون من حولي، كان حلما جميلا، حمدت الله فيما بعد أنه لم يتحقق مع رجل غيرك، فزوجي لا يمكنه الإنجاب، ربما سعادتي عندما أخبرني رضا بذلك لم تكن أقل من سعادتي لحظة عقد قراني.

عجيبة هذه الحياة، تفرحنا حد التخمة وهي تفتح لنا باب السعادة وتفرحنا بنفس القوة وهي تأخذ أحلى أحلامنا.

لا أدري لما لم يأتني طيفك ذلك اليوم، أكانت الحقيقة أقوى من أوهامي، أم كنت مقتنعة أنك لم تكن سوى جزءا من الماضي الذي ذهب بمجرد أن وضع ضابط الحالة المدنية ختمه على وثيقة تجمعني برجل آخر غيرك.

"غير الجبال اللي ما يتلاقاوش"

وأصبح لنا موعد يجمعنا أمام طاولات ساحة "لابراش" وقاعة بوالصوف، كنا أكثر قربا من أي وقت مضى، لم نعد نكتفي بالنظرات، شفتاك أصبح لهما صوتا يغني عشقا وغزلا بعد أن تخليّتَ عن لغة الإشارات، كنتُ سعيدة بتلك اللقاءات، عدتُ إلى مراهقتي الجميلة وأنا أخلد اسمينا على إحدى الطاولات (قيس فيروز حب)، هكذا دون فواصل أو علامات رياضية، لم تعد تفصلنا المسافات، أصبحت أسمع دقات قلبك.

قبلتك الآثمة، قبلتك الشهية، قبلة الخلود والسكر، جبروت الشفاه، لذة الرجفة، رعشة القلب، ما أشهاك حبيبي وأنت تسكرني، تمد في روحي، تصنع لي جناحين، ما أقسى الحياة قبل شفتيك وما أقساها بعدهما، لكن هكذا هي الأشياء الجميلة، كالحلم، دائما لا تلبث أكثر من لحظة أيقظني منها دلو ماء بارد صب عليّ ليعيدني إلى واقعي مفزوعة من جرمي، من هذا الإثم اللذيذ، كانت وصايا أمي ليلة عرسي تخترق رأسي كالرصاص (الرجل أحفظيه يحفظك، لا يغرك صغرك وزينك، إذا أمرك أطيعيه، وإذا غضب تجنبيه، إذا غاب بالك لا تزيغ عينيك).

٦

كنت متأكدة أن الذين أخطأوا رضا في المرة السابقة سيعيدون محاولتهم من جديد، ولن يخطئوا هذه المرة أمام رجل كل الطرق تؤدي إليه، فهو لا يسكن محميات الدولة ولا يملك حراسة خاصة، ولا يحمل مسدسا، كان مفتوحا أمام كل الأخطار وزدت أنا في تعريته عندما أخفيت عنه رسالة التهديد التي وجدتها أسفل الباب بعد عودتنا من تونس، كنت أظن أنني أحميه من وساوس قد تعود إليه، ولكني بذلك لم أعطه الفرصة لأخذ احتياطاته وحذره بعدما اعتقد أنّهم نسوه خلال فترة غيابه عن الوطن، ولم أكن أدري أني أفتح الطريق أمام مهدديه للوصول إليه.

كنت مسؤولة إذن عن اختفائه واغتياله، كنت أريد أن أكفر عن هذا الذنب ولو بحياتي، لهذا وجدت نفسي أرضخ لقانون القبيلة وهو يملى عليّ من والدة رضا (يا بنتي أنت دمنا ودمنا مش لازم يروح للبراني(١٥))

أصبحت إذن جزءا من الميراث، والميراث لا ينال منه الأجانب شيئا، مع خاصية أخرى منحت لي، وهي أن لا أكون إلا لشخص واحد وكان مالكي الجديد اسمه هشام ، شقيق رضا الذي يصغره بعامين ويكبرني بثلاث سنوات، كنت مفروضة عليه كما كان هو مفروضا عليّ، فهو الوريث

الرسمي لشرف العائلة بعد وفاة رضا الذي حمل هذه المهمة لسنوات طويلة خلفا لوالده المتوفي في حادث سير.

كم كانت قصيرة أيام العدة وهي تتسارع لتوصلني إلى حضن رجل آخر غيرك ولم أتذكر من تلك الأيام إلا يوم تدشين النصب التذكاري الذي يخلد زوجي المغتال، حين رثاه رئيس البلدية بكلمات نسمعها كل يوم عبر شاشة التلفزيون وأمواج الإذاعة، قبل أن يوجه كلامه إليّ قائلا: "زوجك مات شهيدا من أجل كلمة الحق" ابتسمت له ابتسامة باهتة وأنا أسأل نفسي أيكون الله مع المسؤولين الذين منحوا رضا وسام الشهادة أم مع قتلته الذين رموه بالكفر؟

الله وحده يعرف الحقيقة وهو القادر على أن يمنحه مكانا في الجنة أو يمنعها عنه.

رسالة الواقع

١

عدت من المقبرةمباشرة إلى المنزل، دخلت غرفتي وارتميت على سريري الحديدي القديم، تمددت بطوليدون حتى أن أنزع حذائي المعفر بتراب المقبرة، وضعت يديّ خلف رأسي أنظر إلى السقف دون أن يكون هو اهتمامي، كنت منهكا مما حدث ومن الجنازة الطويلة، كانت جنازة رسمية ولكن وزير الثقافة والاتصال اكتفى فقط برسالة تعزية قرأها نيابة عنه مدير الثقافة، فكثرة اغتيال الصحافيين والمثقفين جعلت الأمر عاديا في كل مرة، فالوزراء لم يعودوا يحضرون هذا النوع من الجنائز في العاصمة، فكيف يفعلون ذلك في مدينة تبعد بأكثر من ٤٠٠ كلم عن مقراتهم الرسمية، حضرت الرسميات وغاب الوالي الذي ناب عنه رئيس الدائرة ورئيس البلدية ممثلين للسلطات المحلية، ولم يتخلف قائد الناحية العسكرية الذي كان محاطا بعدد كبير من العسكريين ورجال الشرطة والدرك والذين جاء العشرات منهم قبل موعد الجنازة لتمشيط المقبرة وتأمين تواجد المشيعين الرسميين، كلهم جاؤوا لحماية مسؤوليهم وليس لحماية جثة لا تعني

للكثيرين منهم شيئا، رسائل التأبين كانت كثيرة ولكنها جافة، وكان واضحا أن أصحابها كانوا يخشون تعرضهم للانتقاد من الصحافة في اليوم الموالي، خاصة أن الميت صحافي معروف بالمدينة.أغمضت عينيّ لا أفكر في شيء ومع ذلك كان هناك فرح داخلي يعتريني، أحاول تجاهله ولكنه كان يسيطر عليّ بالكامل، فلم يعد يفصلني عن فيروز إلا شهور قليلة.

سمعت طرقا خفيفا على الباب قبل أن يأتي صوت والدتي

قيس..أحضرت لك الغذاء أم تغذيت؟

نزعت يديّ من تحت رأسي وأنا لا أزال مستلقيا على ظهري وحوّلت نظري باتجاه أمي وهي تحمل صينية الطعام متجاوزة عتبة باب الغرفة.

ليس لي رغبة في الأكل

ما بك، تبدو متعبا، ومابه حذاك مطلي بالتراب، أين كنت؟

غيّرت من وضعيتي وجلست على حافة السرير احتراما لوالدتي التي وصلت إلى حدود سريري، وأجبتها:

في الجبانة...(١٦)

خير، شكون اللي مات؟

نسيب فطيمة بنت عمي حسين

شكونعمك حسين

الشيخ حسين بن ناصر جارنا

آه، تذكرت، لقد كانت تقيم معه قبل سنوات، بعد أن غادرت منزلها خوفا من الارهاب،والدتها العجوز حدة حكت لي من قبل، ولم تمكث طويلا في منزل والدها وغادرت، ولكن شكون نسيبها اللي مات؟

زوج بنتها الكبرى..

وهل بنتها كبرت لتصل سن الزواج؟

هي بعمر سمية أختي، وسمية لها ولدين..

صح، الدنيا تجري والأعمار تنقص، ربي يرحمه، أكان مريضا.. أو حادث مرور؟

لالا، هو صحافي تم اغتياله أمس

إيييه، الإرهاب أصبح يقتل أكثر من السرطان والطرق، البارح سمعت في النشرة عن صحافي قتلوه، أكيد هو.

إيه، ربي يرحمه

لكن، أنت كيف تعرفه، أظنه ليس من حيينا؟

أحسست أنّ والدتي بهذا السؤال وضعتني في الزاوية، كان سؤالها أشبه بعملية استنطاق، وهي تعيده عليّ وأنا لا أملك أي جواب إلا أنّه راجل فيروز، ولكن شكون فيروز؟وكيف لي أن أقنع والدتي بسبب ذهابي إلى

المقبرة، وأنا الذي لم أزرها منذ مدة طويلة؟فقدكانت آخرمرة دخلت فيها المقبرة قبل اليوم عند وفاة والدي قبل عامين، فجأة خطرت على بالي كذبة تخرجني من هذا المأزق، وأجبتها:

شقيقه يعمل معي في البلدية.

حتى الجبانة بالمعريفة(١٧)، لو لم يكن شقيقه صديقك لما حضرت الجنازة، سبحان الله، أتعرف ماذا يخيفني؟

وقبل أن تنتظر أي رد منّي، أو تكتشف نظرات الاستغراب التي ارتسمت على وجهي، واصلت:

المعريفة هذه اللي دمرت البلاد، مثلها مثل الإرهاب، خائفة أن تكون في البلدية تمنح الوثائق أيضا بالمعريفة والرشوة، أعلم أنّكم تضعون أثمانا لكل وثيقة، شهادة الميلاد الأصلية، طلب جواز السفر، الإقامة، كل شيء بثمن، لا تتفاجأ، أعلم ما يحدث في هذه البلاد، ولكن أتمنى فقط أن لا تنزلق أنت أيضا إلى هذا المستنقع، ٢٠٠ دج التي تحصلون عليها من استخراج شهادة ميلاد أصلية لا تساوي شيئا ولكنها قد تكون سببا في دخولك جهنم، ممكن تموت قبل أن تصرفها، أو تعتقد أنك ستخلد في هذه الدنيا، أرأيت هذا الصحافي، البارح مع والديه وزوجته واليوم تحت التراب.. ربي يهدينا.

لم أتفاجأ للغة والدتي الدينية هذه فكثيرا ما كانت تلقي عليّ مواعظ عن الحلال والحرام، خاصة أيام الجمعة عندما تعود من المسجد وقد استمعت إلى خطبتي الامام، فتعود محملة بالكثير من الروحانيات، ولهذا تستغل أي خطأ مني لتعيد عليّ ما قاله إمام الجمعة، وكثيرا ما كنت أكتفي بالاستماع إليها رغم أنّي أعرف كل ما قاله الشيخ مرزوق الذي حافظ على منصبه إماما لمسجد الحي لأكثر من عشرين سنة، ولكن ما فاجأني من كلام أمي وأصابني بالذهول هو حديثها عن الرشوة والتجاوزات التي تحدث داخل دار البلدية، شعرت أنّ وكيل الجمهورية هو من يحدثني وليس عجوزا تجاوزت الستين سنة وكل حياتها بين المنزل والسوق القريب من حينا والمسجد الذي لا تتأخر عنه أيام الجمعة، أعرف أنّ الأمر أصبح عاديا وكل من يريد استخراج وثيقة دون انتظار عليه فقط أن يدفع، ولكن كيف لوالدتي أن تعرف هذه الأمور وهي طوال حياتها لم تدخل دار البلدية وأنا من يتكفل بكل ملفاتها الإدارية، وما أرعبني أكثر هو اتهامي بالرشوة، لم أكن أعرف أنني صغير لهذا الحد في عيني "ما يمينة"، خاصة أنّه لم يسبق لي أن أخذت رشوة، حتى أني مرة كدت أطرد من عملي عندما تهجمت على أحد الأشخاص طلب مني شهادة ميلاد أصلية، فعندما منحت له وصل استلام وطلبت منه العودة بعد أسبوع عندما تجهز الشهادة التي يريدها،

وضع أمامي ورقتين من فئة ٢٠٠ دينار، وهو يتمتم "ريقلنا برك خويا"(١٨)، لم أتحمل الموقف وأمسكته من رقبته بقوة وأنا أشتمه بكل الألفاظ، ليتدخل الموجودون لفكه من بين يديّ، والغريب أنّه أنكر وشكاني لرئيس القسم، ومن حسن حظي أن علاقتي برئيسي في العمل جيدة وسيرتي منذ التحاقي بالعمل في دار البلدية لا تشوبها شائبة، ولهذا اكتفى بتحذيري فقط.

تخليّت عن جلوسي ووقفت أمام والدتي، لأول مرة أجد نفسي في وضع المتهم، كان عليّ أن أبعد كل تلك الأفكار عنها، أحسست أني أتضاءل أمامها، فلم أتخيل أن يأتي يوم أحاول فيه الدفاع عن نفسي أمام والدتي، فقد كنت أحظى بثقتها دائما ولم يسبق أن خذلتها، تعرفني لا أحب الكذب ولا الخداع، فكيف أكون مرتشيا وآكل حرام؟ تقدّمت نحوها أكثر، التصقت بصدرها الذي مايزال دافئا رغم ترهله، قبلتها على جبينها، نظرت في عينيها وأنا أحاول أن أزيل كل شكوكها اتجاهي:

ما تقولينه صحيح، الكل يعلم ما يحدث داخل دار البلدية، ولكن صدّقيني لم يدخل جيبي سنتيم حرام، لقد ربيتني وأنا صغير على رفض قبول الدراهم من أي شخص ولو كانوا أعمامي وأخوالي، كنت تقولين لي لا تمسك دينارا إلا إذا منحته لك أنا أو والدك، ولن أنسى كلام والدي المتكرر

عندما كبرت "لن أسامح أحدا يدخل هذا البيت مليما حراما" لقد بقي منقوشا في ذاكرتي حتى الآن، فكيف أقبل رشوة ومالا لا استحقه اطمئني يا الحاجة لن أفعل ذلك أبدا.

احتضنتني والدتي بقوة، كما فعلت لحظة مغادرتي باتجاه الخدمة الوطنية، ولكن هذه المرة لم تكن تبكي، كانت السعادة تشع من عينيها، عرفت أنّها كانت خائفة جدا عليّ، وأنّ جارتنا خالتي عيشة هي التي زرعت كل تلك الشكوك في رأسها، من خلال ما عانته وهي تجهز وثائق الحج، ولهذا حاولت أن تطمئنني:

المهم وليدي لا تقلق نفسك بما قلته، كنت أريد فقط أن أطمئن عليك، الدنيا أصبحت صعبة والمال الحلال لا يأتي بسهولة، أعرف أني ربيتك أحسن تربية، وأنا فخورة بك، لا ينقصني إلا أن أفرح بعرسك وأرى أولادك يملؤون علينا الدار التي أصبحت موحشة منذ وفاة والدك، كريم ولد خالك له بنت يطلبونها للزواج، وأنت تعتقد أنك مازلت صغيرا.

حديث من جديد عن الزواج، لا تيأس أمي من هذا الموضوع، فمنذ زواج أختي سمية ثم وفاة والدي زاد إلحاحها عليّ من أجل الزواج، ربما أصبحت تشعر بالوحدة، خاصة أني لا أبقى كثيرا إلى جانبها، وربما أصبحت تخاف أن تنتقل إلى الرفيق الأعلى دون أن تطمئن علي، هكذا هن

الأمهات تخشين أن تغادرن وتتركن أولادهن دون امرأة أخرى، ولكن لم يسبق أن كانت لي رغبة في الحديث عن هذا الموضوع كما هي في هذه اللحظة، ولكن كيف أصارح والدتي بعلاقتي بفيروز، هل أطلب منها أن تخطب لي امرأة ووري زوجها الثرى منذ ساعتين، هل أخبرها بمن قررتُ الزواج بها وأطلب منها أن تنتظر أربعة أشهر وعشرة أيضا، كنت أريد أن أحكي لها قصتي من البداية مع فيروز، ولكن في نفس الوقت كنت خائفا، لا أدري مما أخاف، من روح الميت التي لم تصل بعد إلى مستقرها أم من ردة فعل والدتي أم من موقف فيروز، فقد يكون لها رأي آخر، هل يمكن أن يكون لها رأي آخر؟ أحسست بهذا السؤال يطعنني كالخنجر، ماذا لو رفضت فيروز الزواج بي، لا لا، لا يمكن أن ترفض، ما حدث بيننا منذ عودتها إليّ يؤكد أنها تنتظر اجتماعنا بفارغ الصبر، فهي الآن أقرب إليّ من أي وقت مضى، كثرت الأفكار وتداخلت في رأسي ولم أشعر حتى بمغادرة والدتي لغرفتي، عادت فيروز بكل عنفوانها وجبروتها لتسيطر عليّ، لتشلني نهائيا، فيروز أحاول تخيّلها في هذه اللحظة، كل ما أجزم به أنها لا ترتدي السواد، ليس لأنها غير حزينة على رحيل زوجها ولكن لأن عادة لبس اللون الأسود على الميت كما نشاهدها في الأفلام العربية لم تلتصق بنسوة هذه

المدينة رغم أنّ الكثير من نسائها مازلن يرتدين الملاءة السوداء في الأيام العادية، وهي عادة التصقت بهن منذ رحيل صالح باي(١٩).

فيروز حزينة، فيروز فرحة، لا أدري بالضبط، كل ما أريده، أن تنتهي العدة بسرعة، واجتمع بفيروز، أن أكون إلى جانبها في فرحها وحزنها، أن أضمها إلى صدري وأقص عليها حكايتي معها من بدايتها، أحكي لها ما فعلته بي بعد لقائنا الأول في "الطاكسي فون"، وما حدث لي بسببها أيام الخدمة الوطنية، سأخبرها أيضا بعلاقتي ببنت خالها نادية، فأنا لم أرتكب جريمة ولكن كانت وسيلتي الوحيدة للوصول إليها، أحسست بمتعة كبيرة وأنا أستعيد تلك الذكريات، أعرف أن هذه الذكريات ستجعل فيروز تخرج من الأجواء الكئيبة التي فرضها اغتيال زوجها، ولكن لم يكن ممكنا أن نلتقي، فقررت أن أكتب قصتي معهاوأبعثها لها في رسالة، ستكون ممتعة أكثر وهي مكتوبة، لم يكن صعبا الحصول على عنوان فيروز، ولهذا اكتفيت بالكتابة على الظرف (إلى السيدة فيروز حرم رضا بولحبال، حي الأمير عبد القادر "الفوبور سابقا")، هذا هو المكان الذي تقطنه فيروز، أما رقم الباب فلا يهم، ففي الأحياء الشعبية لا نحتاج عادة إلى أرقام الأبواب فالكل يعرف بعضه وساعي البريد يحفظ أسماء وعناوين الأشخاص أكثر مما يحفظ أسماء أفراد عائلته.

٢

عندما أنهيت كتابة الرسالة كانت الساعة تقترب من الثامنة وهو موعد نشرة الأخبار الرئيسية، نشرة هذا المساء تهمني كثيرا، سأكون حاضرا فيها، فصحافي التلفزيون الذي حضر جنازة رضا أخذ انطباعات المشيعين وكنت منهم، ربما كان يعتقد أني صديقه أو أحد أفراد عائلته، سألني بعد أن وضع الميكروفون بالقرب من فمي ووجه زميله الكاميرا نحوي:

هل من شهادة تقدمها لنا عن الشهيد رضا بولحبال؟

لم أجد ما أقوله..كل ما أعرفه أنه كان زوج حبيبتي، وأنه يشبهني، أتذّكر شكله عندما رأيته في المرة الوحيدة داخل دار البلدية، علاقتي به لا تتعدى بضع دقائق وعدد قليل من الكلمات...

أعاد الصحافي طرح السؤال:

سيدي، هل من كلمة تقولها في حق الضحية؟

لقد كان رجلا بأتم معنى الكلمة، لقد فضّل مواجهة الكلاش(٢٠) بالقلم ورفض الصمت أو الهرب كما فعل الكثيرون، الجزائر فقدت برحيله رمزا من رموزها، فهو لا يقل عن شهداء الثورة التحريرية..

لا أدري أين قرأت هذه الكلمات ولكنّها أنقدتني من موقف محرج أمام الكاميرا، وستظهرني بعد قليل أمام فيروز، ماذا ستقول عندما تراني وتسمعني أتحدث عن زوجها في التلفزيون، هل تصرخ في ردة فعل لا إرادية وتقول هذا قيس، كما نفعل عادة عندما نشاهد شخصا نعرفه يظهر على شاشة التلفزيون؟أم ستتمكن من تمالك نفسها كما فعلت عندما رأتني في دار البلدية بعد سبع سنوات من الغياب؟ فيروز تملك قدرة عجيبة على إخفاء مشاعرها، تعرف كيف تتعايش مع المحيط الموجودة فيه، ولكن هذه المرة لن تكون مضطرة لإخفاء ردة فعلها فقد بدأت نشرة الأخبار وانتهت ولم أظهر أو أتكلم، فضّل المشرفون على النشرة إظهار صور فقط من الجنازة وملخص من كلمة الوزير، واستعملوا المقص أمام كل التصريحات فهي لا تعنيهم، فما يهمهم في كلمات الإشادة في حق شخص لا يحمل أي رتبة في سلم المسؤولية الطويل، لقد مات كما يموت العشرات يوميا في هذه البلاد ومنحه دقيقتين في نشرة الأخبار الرسمية وفي تلفزيون الدولة الوحيد هو امتياز سيبقى أهله يتحدثون عنه طوال حياتهم حتى وإن لم يشاهدوا صور الجنازة، فقد نسيت أنّه من عادات أهل الميت أن لا يشعلوا التلفزيون ٤٠ يوما.

استيقظت برغبة كبيرة في معرفة كيف نقلت الصحف جنازة رضا بالأمس، اشتريت كل الجرائد الصادرة هذا الصباح، وتفاجأت أنها لم تهتم كثيرا بالموضوع، فقد اكتفت بنشر الخبر في سطور قليلة في إحدى الصفحات الداخلية أو في الصفحة الأخيرة في أفضل الأحوال وحتى دون صورة، باستثناء الجريدة التي كان يعمل بها فقد خصصت صفحات كثيرة للحادثة، عرفت أنّ رضا نجا من عدة محاولات اغتيال وأنّه كان يعود إلى منزله متخفيا أو يبيت في مقر الجريدة، وأنّه يوم اغتيالهتم اقتحام مقر عمله في ساعة متأخرة من الليل من طرف مجموعة من الأشخاص الملثمين واقتادوه بعيدا قبل أن ينفذوا فيه (حكم الله، شرع الله)(٢١) بفصل رأسه عن جسده وبعد ذلك وضعوه قطعتين في صندوق سيارته وغادروا، أحسست بقشعريرة غريبة وأنا أقرأ هذه التفاصيل التي أعادتني إلى الأيام التي تلت تسريحي من الخدمة الوطنية عندما كنت أصادف جثة مرمية وأنا في طريقي إلى المسجد لأداء صلاة الصبح، كانت الأجواء مرعبة وماتزال ولا ندري كم سيستمر هذا العنف الذي يؤدي بالبلاد إلى الهاوية، انتبهت وأنا أتصفح الجريدة إلى حوار مع فيروز باعتبارها زوجة القتيل، كان كلامها كله يعبّر عن حزن امرأة ثكلى، وفاجأتني عندما قالت أنّ رضا كان متأكدا أنه سيغتال وكان ينتظر هذا اليوم غير مبال بالتهديدات التي كانت تصله، حاولت أن

تظهره بطلا يواجه العدو بصدر عار، ولا أعتقد أنها كانت صادقة في ذلك، فأي شجاعة لرجل أعزل أمام قتلة جبناء يرفضون المواجهة، فيروز كانت كريمة في حديثها عن زوجها وحتى وفية له عندما رفضت أن تنشر صورتها في الجريدة.

٣

لا أدري إن كانت فيروز قرأت رسالتي التي تحكي قصتنا أم لم تصلها بعد، لم أكن أملك أي طريقة لمعرفة ذلك، حتى الهاتف الذي كانت تحدثني من خلاله لا أعرف رقمه، فقد كانت ترفض منحي إياه رغم إلحاحي، كنت أريد رؤيتها أو حتى سماع صوتها ولكن لا حيلة أمامي، فكرت في مراقبة منزلها وأنتظرها عندما تغادر ولكني تراجعت عن الفكرة، ووجدت أنّ انتظارها عند المقبرة قد يكون أفضل، فالأكيد أنها ستزور قبر زوجها بمناسبة مرور أسبوع على اغتياله، ولكنها لم تفعل وحضر المقبرة فقط مجموعة من العجائز والشاب الذي رأيته يوم جنازة رضا، لم أجد إلا حارس المقبرة الذي طلبت منه إخباري عندما يأتي أشخاص لزيارة القبر، تركت له رقم هاتف العمل ومجموعة من الأوراق النقدية، ولكن لا جديد وكأنّ الناس هجرت المقابر بعد حادثة التفجير التي تعرضت لها مقبرة الشهداء وذهب ضحيتها أطفال الكشافة الإسلامية، لقد كانوا في زيارة ترحم عليالشهداء بمناسبة ذكرى انطلاق ثورة التحرير المباركة، ولم يكونوا يعلمون أنّ هناك قنبلة مزروعة تحت إحدى الشجيرات قبل أن تنفجر مع

زمن وصولهم، العنف امتد إلى القبور، والجنائز أصبح لا يحضرها إلا أقارب المتوفى، عدت إلى المقبرة لأسأل حارسها، ولكنه أكد لي أنّ قبر رضا لا تزره إلا والدته ولهذا لم يتصل بي، فقد أخبرته بعدم الحاجة للاتصال بي إذا كانت والدة رضا فقط من يحضر، لا أعرف إن كان شك في أمري ولكنه لم يظهر أي اعتراض وتظاهر بالبلاهة وهو يتحسس حزمة الأوراق النقدية التي دسستها في جيبه.

تذكرت والدتي وأنا أقدّم المال لحارس المقبرة، هل ما فعلته رشوة؟ لا أعتقد ذلك، فأنا أردت مجازاته على خدمة وليس لتسهيل مهمة، أفتيت لنفسي بأنّ ما قمت به لا علاقة له بالرشوة وأنّ ما قلته لوالدتي عن أخلاقي وأمانتي مازال ساري المفعول رغم أني كنت مستعدا أن أتنازل عن تلك المبادئ من أجل لقاء جديد مع فيروز.

ولكن اللقاء لم يحدث ولم أكن أملك إلا الانتظار فقد يرن الهاتف من جديد، ربما فيروز تنتظر نهاية العدة لتظهر، أعرف أنها قادرة على الانتظار وأنّها قد تكبت مشاعرها احتراما للتقاليد ولعائلة زوجها، فهي ربما ترى أن الاتصال بي أو لقائي خيانة لرجلها ولو كان رميما، لا أعرف فيما تفكر ولماذا تؤجل ظهورها من جديد ولكني واثق أنّها لن تتركني مرة أخرى، لقد أصبح الطريق مفتوحا أمامنا ولم تتبقَ إلا أياما قليلة لتستعيد حريتها وتختار

رجلا آخر تكمل معه حياتها، رجلها الراحل أصبح من الماضي ورجل الحاضر والمستقبل ينتظرها، ينتظرها ليجعل من أحلام الماضي الذي سبق ماضي زوجها القتيل حقيقة، سنوات طويلة مرت لتعود القصة إلى بدايتها، إلى عاشق تجاوز الثلاثين ينتظر حبيبته كمراهق، يتخيل صورتها، ينام إلى جانبها ويحتضن وسادتها الخالية، ولكن هل القدر سيواكب هذه الأمنيات أم سيكون له رأي آخر، قد يفسد كل شيء ويجعل الممكن مستحيلا، كما جعل استحالة عودة فيروز إلي ممكنة جدا.

٤

أصرت والدتي على مرافقتها هذا الصباح لزيارة قبر والدي، ورغم أنّه ليس من عادتها أن تطلب مني ذلك، إلا أنّها كانت مصرة على أن أكون بجانبها في هذه الزيارة الروحانية، متحججة بأنّ والدي زارها ليلة أمس في المنام وأخبرها أنّه غاضب مني لأني تخليّت عنه، وأخذت أمي تلقي عليّ موعظة خاصة بأهمية زيارة القبور والدعاء للميت، خاصة أنّ الشيخ مرزوق أكد أنّ الإنسان المتوفى يترك خلفه كل شيء إلا ثلاثة أشياء، لم تتذكر منها إلا واحدة وهي "ولد صالح يدعو له"،لا أدري لما لم يحضر والدي إليّ مباشرة ويخبرني بغضبه حتى يتوجه إلى أمي التي تكفلت بنقل انشغاله، صحيح أنّي قرأت الكثير عن تلاقي أرواح الأموات والأحياء خلال النوم إلا أني كنت متأكدا أنّ روح والدي وإن التقت بروح والدتي كما تقول فإنّها لم تحدثها مطلقا عن زواجي، وكأن أمر زواجي مهم جدا حتى يتم مناقشته في عالم الأرواح !، ولكن والدتي كانت مصرة على موقفها، وأكثر من ذلك أن والدي أخبرها أن عدم زواجي حتى هذا العمر يعود إلى غضبه مني، وهذا كان كفيلا بأن تتبنى مطالب المرحوم الوالد بقوة، ورغم اقتناعي

بتقصيري في حق والدي الراحل إلا أنّ زيارة قبره بعد لقاء ميتافيزيقي بينه وبين والدتي يجعلني أضحك على نفسي، ومع ذلك لم أرد إغضاب "ما يمينة" بعد الحوار الساخن الذي دار بيننا منذ أيام، ولهذا رضخت لطلبها ورافقتها إلى المقبرة قبل بداية دوامي في العمل.

كانت أمي متأبطة ذراعي ونحن في طريقنا إلى المقبرة التي لا تبعد كثيرا عن منزلنا، وكأنها تتأبط ذراع حبيبها، أحسست أنها كانت سعيدة بذلك التقارب الجسدي الذي كان بيننا، رغم أني لا أتذكر أنّي رأيتها في نفس الصورة مع والدي حتى وهما مازالا شابين، فالعلاقة بينهما كانت خجولة، وكل الكلام الذي يجمعهما عبارة عن أوامر واستفسارات منه وإجابات من طرفها، حتى عندما كانت تستيقظ صباحا لتحضير الفطور له لم يكونا يتكلمان، هذه طبيعة والدي الجاد في كل شيء، وربما ما كان يثير استغرابي في علاقة أبي بأمي أنهما لم يكونا ينامان في غرفة واحدة، ربما لضيق المنزل الذي لا يتوفر إلا على غرفتين، واحدة أنام فيها أنا ووالدي والثانية لوالدتي وأختيّ سمية وعائشة، فمنزلنا ضيق وفي الأيام التي يزورنا ضيوف ويضطرون للمبيت كنت ألجأ إلى المطبخ لقضاء ليلتي، ورغم اقتناعي بأن هذا هو سبب عدم قدرة والدي على لقاء والدتي على فراش واحد إلا أني كنت كثيرا ما أشك في قدرته الجنسية، في الوقت الذي لا تساورني الشكوك

نهائيا في إمكانية خيانته لوالدتي، فهو شخص ملتزم ومن غير الممكن أن يفكر في أمور خارج العلاقة الزوجية، ولم أتخلص من تلك الوساوس إلا لما تفاجأت به يحضنها من الخلف وهو يقبّلها على رقبتها عندما عدت إلى المنزل على غفلة، وهو ما أربكهما لدرجة أنّ والدتي لم تقابلني لمدة أسبوع كامل بعد الحادثة، تلك الصورة جعلتني أتخلص من فكرة العجز الجنسي عند والدي، فهو كان يستغل فرصة غيابنا عن المنزل لقضاء حاجته من زوجته.

علاقة "ما يمينة" و"بابا علي" كانت هادئة ومليئة بالاحترام كما هو في كل العائلات، وقد أصبحت أكثر حميمية في سنتيه الأخيرتين عندما اكتشف أنّه مصاب بسرطان الرئة بسبب إدمانه على التدخين، فكانت تسهر عليه، خاصة أنّ زواج عائشة وسمية منحها فرصة التواجد معه طوال الليل، كما أنّها كانت تضطر إلى مرافقته إلى المستشفى عندما يشتد مرضه في غيابي، ورغم اهتمام أمي الكبير ورعايتها له إلا أنّ القدر لم يمهله، وغادرنا والدي في الوقت الذي أصبحت والدتي أكثر قربا منه، وهذا ما أثر عليها كثيرا بعد رحيله، ولم تستوعب غيابه إلا بعد شهور طويلة.

أخذت والدتي معها قارورة ماء حتى تسقي قبر زوجها، جلست على حافة الحجر الرخامي الذي يحيط بالقبر وأخذت تكلمه وهي تشكوني له بأنّي أرفض الزواج ولا أجيء لها بامرأة تعينها على أشغال البيت لأنها تعبت

كثيرا، وبقيت والدتي على تلك الحال تشكوني وتشكو حالها لوالدي الذي لا يرد عليها، وفي النهاية أفرغت قارورة الماء فوق القبر وقرأنا الفاتحة من جديد قبل أن نغادر.

في طريق العودة تأكدت أن والدتي أرادت أن تضعني في تلك الأجواء الروحانية لتفتح لي قضية الزواج من جديد

شفت يا وليدي حتى باباك مش راضي عليك، واش ينقصك حتى ترفض الزواج، إذا المشكل في الدارتسكن معايا، أنا واش بقى لي عمر، إذا كملت عامين أو ثلاثة معاكم راني مليحة،وإذا على المهر يقدّرنا ربي عليه وإذا احتجنا كاينة المحزمة..(٢٢)تاعي نبيعها أو نرهنها ونكمل العرس، الذهب القديم مليح ويجيب في الميزان، وحتى المراكاينة...

تفاجأت بكلامها الأخير معتقدا أنها تعرف قصتي مع فيروز، فسألتها مستغربا:

شكون هذهالمرا اللي كاينة؟

فريدة بنت خالك سليمان

المعلمة؟..

واش خصها، مرا ونص وشهريتها في جيبها، على الأقل تساعدك في مصروف الدار، وزيد نعرفوها وتعرفنا، أنا نحبها ونشوفها تصلح لك.

فريدة هي الزوجة المثالية لشباب اليوم، حيث قرأت مرة إحدى الدراسات تقول أنّ أكثر النساء طلبا للزواج هن المعلمات، وذلك لأنهن موظفات عند الدولة وأجورهن مقبولة، كما أنّ توقيت عملهن جيد، ويمنحهن فرصة الاعتناء بالمنزل والزوج، على عكس الطبيبات واللائي يأتين في المرتبة الأخيرة رغم أجورهن الكبيرة مقارنة بالمعلمات، وأكدت الدراسة رفض الشباب الزواج من الطبيبات لطبيعة عملهن، حيث أنّ الكثير من الشباب يرفض حتى أن يتخيل زوجته في المناوبة الليلية بالمستشفى نظرا لما يشاع عن ما يحدث من تجاوزات أخلاقية في المستشفيات، وما دام قانون وزارة الصحة يفرض المناوبة على الجميع، فأي طبيبة ستبيت مرة في الأسبوع خارج منزلها، وهو أمر غير مقبول عند الكثير من الشباب.

كانت والدتي سعيدة بفكرة زواجي من فريدة، والصراحة بعيدا عن امتياز الوظيفة فهي جميلة ومؤدبة، وفي المرات القليلة التي تحدثت فيها معها ظهرت لي مثقفة، ولكنها لا تصلح لرجل يعشق غيرها.

٥

حديث والدتي عن وظيفة زوجتي المستقبلية كما تريد هي ذكرني بفيصل صاحب "الطاكسي فون" الذي كنت أعملفيه، فقد كان حلمه على الدوام الزواج من معلمة، وما نمّى حلمه هذا أنّ "الطاكسي فون" يوجد مقابلا لمدرسة ابتدائية، كان يردد على مسمعي دائما:"الزواج بمعلمة صفقة رابحة، خدّامة وتعاون في مصروف الدار، وتهنيك في كسوتها ومكياجها، كما أنّ مدة عملها اليومية لا تزيد عن ساعتين في الصباح ومثلهما في المساء، ما يعني أنّها تكون قادرة على الاهتمام بشؤون البيت دون مشكل، كما أنها قدام عينيّ، راك تشوف" وهو يشير إلى باب المدرسة:"المسافة بين الدار والمدرسة مترين، يعني عرض الطريق"، كان فيصل محقا في تحليله ويبدو أنّه درس الأمر جيدا، ولكن مشكلته حسبما كنت أظن أنّه خجول ولم يستطع التقرب من أي معلمة من المعلمات الكثيرات اللواتي يدخلن يوميا "الطاكسي فون"، واهتمامه بفكرة الزواج بمعلمة وصل إلى مدير المدرسة بحكم أنّه زبون دائم عندنا، ولكن المدير بعد أن عرف باهتمام فيصل

بالمعلمات وعده بتسهيل مهمته وما عليه إلا الاختيار، ولكن فيصل كان يتهرب من الأمر، قبل أن أكتشف مع مرور الوقت أنّه على علاقة بإحداهن، ولكنه كان يتفادى الحديث في الأمر خجلا، ومن سوء الحظ أنّ تلك المعلمة كانت سببا في مغادرتي "الطاكسي فون"، ففي أحد الأيام بقيت تتحدث مدة طويلة لدرجة أنّ العداد سجل أكثر من ألفي دينار، ولكن عندما طلبت أن تدفع ما عليها رفضت وقالت لي فيصل يعلم وهو صاحب "الطاكسي فون" وهذا الأمر استفزني كثيرا، ولم أتركها تغادر إلا بعد أن تركت لي خاتمها الذهبي كرهن إلى أن تحضر المبلغ المطلوب، وبعد ذلك علم فيصل بالأمر فانزعج كثيرا مني، وشعرت بالإهانة وهو يقول لي "هذا المحلمحلها مثلما هو محلي وأنت خدّام عندي"، هذا الكلام أغضبني كثيرا فرميت له مفتاح المحل وغادرته نهائيا، ورغم أنّه جاءني بعد أيام يعتذر ويطلب عودتي بعد أن قطع علاقته بصاحبته عندما اكتشف أنها على علاقة برجل آخر، إلا أني رفضت، وبقيت لأكثر من شهرين بلا عمل، قبل أن ألتقي مسعود رئيس قسم الوثائق الإدارية بالبلدية والذي تعرفت عليه من خلال تردده على "الطاكسي فون"، فبعد أن علم بوضعيتي توسط لي للعمل بدار البلدية، ورغم أنّ الأجرة كانت قليلة إلا أنّي شعرت أنّ العمل عند الدولة يحفظ لي كرامتي أكثر من العمل عند شخص يتعامل معي حسب مزاجه.

رسالة الضياع

١

إنتهت العدة ولم تظهر فيروز، لم تزرني في دار البلدية ولم ترفع سماعة الهاتف لتطلبني كما كانت تفعل قبل وفاة زوجها، كما أنّها لم ترد على رسالتي، ازدادت وساوسي ولم أعد قادرا على التكهن بما قد يكون حدث لها، كانت الأيام تمر ثقيلة وموحشة وأنا لا أملك إلا الانتظار فكل شيء مرتبط بظهور فيروز من جديد ولو من خلال رسالة، أصبحت لا أغادر المنزل بعد أن تحصلت على عطلة مرضية، كما قاطعت أصدقائي في الحي ولم أعد ألتقي بهم كما كنت أفعل دائما، كنت أقضي يومي كله داخل غرفتي أشاهد التلفاز أو أقرأ كتابا وأفكر في فيروز أغلب الوقت، لم أجد من عذر أقدّمه لوالدتي إلا أني أخذت عطلة من العمل وهذا حتى أحضّر لمسابقة مهنية ستجري بعد أيام وقد أحصل على منصب عمل أفضل، وقد اقتنعت والدتي بما قلته لها، خاصة أنّها كلما دخلت عليّ غرفتي وجدتني أحمل كتابا أقرؤه أو أضعه أمامي على السرير عندما أكون أشاهد التلفاز أو تائها أفكر في فيروز، ولم تكن كتبي تلك إلا روايات قديمة أو بعض المجلات الخليجية التي أحب مطالعتها، ورغم أنّ حصولي على وظيفة أفضل كان يهم"ما يمينة" وتتمناه إلا أنّ أمنيتها الأكبر أن تراني عريسا، ولهذا لم تنسى قصة

فريدة كما كنت أعتقد بل فقط أمهلتني أياما حتى أحضرت صورتها،أجلستني أمامها وأخرجت الصورة من الخزانة حيث كانت تضعها، وجهتها مباشرة إلى عينيّ وهي تروج لجمال وأنوثة بنت أخيها:

أعرف أنك لم ترها منذ مدة، وقد تغيّرت كثيرا، أصبحت أكثر جمالا وأنوثة، الله يبارك "ما عندك ماتخيّر عليها"، أنظر جيدا إلى صورتها وأحكم بنفسك، وإذا لم تعجبك سأبحث لك عن فتاة أخرى.

لم أجد كيف أخرج من هذا الموقف الذي وضعتني فيه والدتي، فلم يكن أمامي أي عذر أمامها يجعلني أرفض هذا الزواج، خاصة أنّ الصورة التي وضعتها بين يدي تؤكد أنّ فريدة أصبحت أجملَ وأكثرَ إغراء مما عرفتهاعليه، إضافة إلى شهادة والدتي في أخلاقها وتربيتها، ما يعني أنّه ليس أمامي أي مبرر، ورغم ذلك فتحت أمامي خيارا آخر:

إذا كنت مهتما بفتاة أخرى، تعمل معك أو بنت الجيران أخبرني، المهم قل نعم والباقي عليّ.

كنت خائفا أن أقول لها نعم توجد أخرى في حياتي وأريدك أن تخطبيها لي اليوم قبل الغد، ولكن لا أعرف أين فيروز الآن، وماذا حل بها بعد وفاة زوجها، لم تظهر ولا يمكن أن أخبر والدتي بقضيتها وهي غائبة هكذا دون

سبب ولهذا اضطررت إلى نفي الأمر تماما عن والدتي التي اعتبرت ذلك موافقة على فريدة:

إذن اتفقنا، غدا سأزور منزل خالك وأتحدث في الموضوع مع فريدة، ولا أعتقد أنها سترفض، "الراجل مايتعايبش وهي مابقالها قعاد في دار باباها."

رفضت فكرة والدتي الأخيرة وحاولت على الأقل تأجيل ذهابها لدار شقيقها، فقد أردت فقط أن أمنح لنفسي فرصة أخرى أو أمنح لفيروز فرصة الظهور الذي تأخر.

٢

أخيرا وبعد أسابيع من نهاية فترة العدة وصلتني الرسالة التي كنت انتظر، لم أمهلها ولم أتعامل معها كما تعاملت مع رسالة فيروز الأولى في دار البلدية، فهذه الرسالة لا تملك القدرة على الانتظار ولا تحتاج إلى طقوس خاصة لتقرأ، أسرعت إلى الدار، دخلت غرفتي وأغلقت باباها على غير العادة، إنها اللحظة التي انتظرتها طويلا، اللحظة التي ستقول فيها فيروز "نعم أقبلك زوجا" ستعتذر على التأخر وستقدم لي التبريرات المقنعة، ستحدد موعد الخطبة وموعد العرس ومكان قضاء شهر العسل، نعم ستفعل ذلك لوحدها، كما كانت تفعل في مواعيدنا السابقة، كما أنها متأكدة أني لن أرفض، ولو حددت تاريخ العرس غدا سأقول نعم ولا بأس أن نتشارك سريري الحديدي القديم.

بأي لغة كتبت تلك الرسالة، هل سرقت مني لغتي وأسلوبي وأفكاري، لقد عادت لتحكي قصتنا من البداية، في جزئها الذي تشاركنا فيه وفي جزئها الذي لم أكن أعلمه، لقد أعادت وضع الدينارين في يدي، وأهانت أحمد لأجلي، كانت تتهرب من زوجها أيضا لأجلي، إنّه الجزء الآخر من قصتنا التي تصلح لأن تكون فيلما سينمائيا بامتياز، لن يكون المخرج

بحاجة إلى سيناريست فالقصة مكتوبة بكل تفاصيلها، ولن يكون بحاجة إلى ممثلين لأداء دوري البطولة، فأنا وفيروز فقط من يمكنهما إقناع المشاهد بحقيقة أحداث قصتنا، لن نطلب أجرا من المنتج، فأجرنا أن نعيش بداية حبنا من جديد، أن أقبّلها من جديد، أن أرى خجلها من جديد، ما أثار انتباهي أيضا في قصتنا التي كتبتها فيروز أنّها لم تشر إلى ما حدث بيني وبين بنت خالها نادية، أكيد لم تغضب لأنّها تعرف أني فعلت ذلك لأجل الوصول إليها فقط، أعادت لي الرسالة فرحتي ونشوتي قبل أن يصدمني آخرها "أصبحت إذن جزءا من الميراث، والميراث لا ينال منه الأجانب شيئا، مع خاصية أخرى منحت لي، وهي أن لا أكون إلا لشخص واحد، وكان مالكي الجديد اسمه هشام" كانت كلماتها الأخيرة مزلزلة، حطمت كل كبريائي ورجولتي، أي كبرياء وأي شرف وأي مسؤولية تمنحها الحق في رجل آخر ولو بوثيقة جديدة مختومة في دار البلدية، لقد ارتمت في حضن رجل ثان وتناست كل الوعود التي كانت بيننا، شعرت بدوار حاد، تماسكت حتى لا أسقط، فكرت في التوجه إلى والدتي وإخبارها أني أوافق على الزواج من فريدة، ولكني تراجعت، فأنا لا أريد امرأة تؤكل ولكن امرأة تحب، لقد طارت فيروز من جديد وتركتني وحيدا في مطار أغلقت أبوابه، فهو لا ينتظر القادمين ولا يودع مسافرين، لقد أصبحت وحيدا من جديد بعدما

أصبحت فيروز ملكا لذكر آخر.

عندما أخبرت والدتي بعد ذلك برفض فكرة الزواج سواء من فريدة أو غيرها كانت الصدمة كبيرة عليها، لم تجد من تبرير لقراري إلا السحر، فحسب اعتقادها أني مسحور من طرف إحدى الغيورات وكانت تشك في زوجة عمي (هي بنت الكلب، مكانش غيرها، علابالي تروح عند الدراجي تضرب الكارطةوالبولدون(٢٣)) ولم تكن تعرف أنّ سحري لا علاقة له بالحشائش والعقاقير، لقد سحرتني فيروز بطلتها الأولى داخل "الطاكسي فون" وفي الوقت الذي كنت أعتقد أني شفيت منها، عادت دون مقدمات لتفجر بركان حبها الخامد منذ سبع سنوات، لقد أسماني والدي قيسا لأنّ هذا الاسم أعجبه عندما سمعه أول مرة وهو يؤدي العمرة بعد أن اختارته القرعة رفقة عدد من عمال الشركة الوطنية لنقل المسافرين لزيارة البقاع المقدسة، أخبرني والدي بعد ذلك أنّ شخصا يمنيا كان يحمل هذا الاسم تنبأ له بأنّ مولوده القادم بعد عائشة سيكون ذكرا، ولما تحققت نبؤة ذاك الشخص قرر والدي أن يسمي مولوده باسم الشخص اليمني دون حتى أن يعرف معناه ولكن كأنه كان يعلم أنّي سأعيش قصة قيس آخر، كل ما فعله في حياته أنّه أحب فتاة وفشل في الزواج بها، كما فشلت أنا في الارتباط بفيروز بكرا وثيبا.

٣

لم تعد والدتي تحدثني عن الزواج ومع ذلك كنت متأكدا أنّها زارت الكثير من المرقين والعرافين والمشعوذين في سعيها لتغيير موقفي، فهي مقتنعة أنّ بي سحر أو حتى مس من الجن، وقد وجدت مرة حجابا ملفوفا داخل وسادتي ولكني لم أعر الأمر أي اهتمام مادام ما تقوم به والدتي يبقي أمامها الأمل في زواجي وهذا يريحها قليلا بدل اليأس الذي قد يقتلها.

عندما أنظر إلى إصرار "ما يمينة" على تزويجي وتأكيدها على تأخري في ذلك أشعر أني تجاوزت الأربعين وأنا لا أبلغ من العمر إلا ٣٢ سنة، ولكن أجد لها عذرا أنّها مازالت تحتفظ بكل عادات منطقتها الريفية بقرية "الزاوش" الموجودة على أطراف المدينة، حيث يعتبر الزواج أول علامات الرجولة حتى الآن، فيتزوج الشاب قبل بلوغه العشرين مهما كانت ظروفه المادية والاجتماعية ولهذا كاد جدي يطرد والدي من المنزل عندما وجد أنّه متردد في الزواج وأمر بتزويجه فورا، فيما تتزوج البنت وهي لا تزال طفلة تلعب، وكانت أمي تزوجت من والدي الذي هو ابن عمها ولم تبلغ السادسة عشرة من عمرها، ولكن لم يكتب لها الله الانجاب في سنوات الزواج الأولى، حيث كان جنينها يسقط بمجرد أن يبلغ شهره السادس،

ومع ذلك كانت تحبل في كل مرة سعيا لتوفير الخلفة وخوفا من أن يتزوج والدي بامرأة أخرى تحت ضغط عماتي وجدتي الضاوية، وهذا ما جعلها تواصل محاولاتها رغم سقوط خمسة أجنة قبل اكتمال نموهم، وقد برر لها البعض بأنّ ما يحدث لها نتيجة السحر ولكن رغم ترددها على بعض المشايخ والمرقين إلا أنّها لم تنجح في الحفاظ على أجنتها،ومع تكرار حالة نزول الأجنة نصحوها بالشيخ بوشاقور الذي يعتبر أحد الأولياء الصالحين، فلعل بركته تساعدها على تجاوز هذه المعضلة، وقد نفى الشيخ أن تكون والدتي مسحورة وأكد أن ما يحدث لها نتيجة زواج الأقارب فقام برقيتها، كما كتب لها حجابا ووصف لها بعض الأعشاب الطبية وطلب منها أن لا تحبل لمدة عامين كاملين مع مداومتها على العلاج بالأعشاب الطبية فقط، ولما أتمت الفترة قدّم لها وصفة جديدة وأذن لها بأن تحبل وبالفعل تحققت المعجزة وأنجبت والدتي بنتها الأولى والتي أسمتها عواشة باعتبار أنّها أول مولود يعيش لها، كل هذا وأمي لم تبلغ الرابعة والعشرين، وعندما عادت للشيخ بوشاقورتستفسره كيف تسيّر حياتها القادمة طلب منها فقط أن تباعد بين الولادات وسيكون كل شيء بخير، ولهذا كانت أختي الكبرى أكبر مني بخمس سنوات وأنا أكبر من سمية بست سنوات والتي أنجبتها والدتي بعد سن الخامسة والثلاثين.

ورغم السنوات الطويلة التي قضتها والدتي في المدينة إلا أنّها لم تتخلى عن تلك الأفكار التي تربت عليها وربما من حسن حظ فريدة أنّ والدها عاش فترة طويلة في فرنسا ولم تلتصق به تلك العادات، ولهذا سمح لها بإكمال دراستها، ورغم أنّها تجاوزت الخامسة والعشرين إلا أنّ والدها يعتبر عدم زواجها حتى الآن أمرا عاديا متحديا والدتي التي كانت دائما تسعى إلى التأثير عليه ولكنه يتهرب منها بقوله "مكتوبها ما جاش"

والدي وإن لم يدخل مدرسة إلا أنّ ما تعلمه في الكتاتيب منحه القليل من الحصانة ضد تقاليد قريته، ولهذا لم يحدثني يوما عن الزواج وكان دائما يقول لوالدتي "أتركيه، عندما يأمر الله سيتزوج"، وأجد في والدي قليلا من خالي الطيب والد فريدة، فهو يقدّر العلم ويعتبره أهم من أي شيء آخر، وهذا ما جعله يقرر ترك كل شيء والتنقل للعيش في المدينة بعد أن بلغت أختي عواشة سن التمدرس، واضطرت بعد ذلك إلى تغيير اسمها إلى عائشة بسبب التهكمات التي كانت تتعرض لها في المدرسة من بقية الأطفال،وكنت في ذلك الوقت في عامي الأول فقط، رحيلنا إلى المدينة أجبر والدي على التنازل عن حقه في منزل العائلة وتحصل على قطعة أرض مهملة بنى عليها غرفة لتأويه هو وعائلته وهو ما كان اللبنة الأولى لمنزلنا الحالي الذي يقع في حي لاتزال تعتبره الدولة فوضويا، كما توسط له أحد

الأشخاص للحصول على منصب عمل في الشركة الوطنية لنقل المسافرين كأمين مخزن، وبذلك بدأت حياة جديدة لعائلتي.

عندما أنظر إلى أفراد عائلتي الذين مازالوا يعيشون بقرية الزاوش وخاصة الذين في مثل عمري أصاب بالذهول، فكل واحد منهم لديه على الأقل ٥ أطفال، أكبرهم تجاوز العشر سنوات، في حين مازلت أنا أتعامل مع الجنس كمراهق ولا أدري إلى أي وقت سيستمر هذا الأمر، وعندما أتذكر مرات كلام والدتي وهي تقول "أولادك تأكلهم في كرشك" أصاب بالرعب، إلا أني في المقابل لا أرى أولادا لي بعيدا عن فيروز.

رسالة كازانوفا

١

أدخلتني رسالة فيروز الثانية في دوامة لم يكن من السهل الخروج منها، صحيح أنّي لم أعد مراهقا، ولكن من يملك القوة ليصمد وهو يرى أحلامه تنهار أمامه في هذا العمر، أحلامي لم تكن أكثر من أن تجمعني الحياة بأرملة، لقد أفقدتني رسالة فيروز بوصلتي فلم أعد أعرف ماذا أفعل، فكرت في الهجرة إلى إيطاليا، واللحاق بصديقي رمزي الذي جازف بحياته عبر "زوارق الموت" كما تسمى وتمكن من الوصول إلى صقلية وهو يعمل في جني الطماطم صيفا ونادلا شتاءا، وكان كلما اتصل بي يلح عليّ في اللحاق به، ولكني اعتبرت الفكرة جنونا فتراجعت عنها، فلمن أترك والدتي التي أتعبتها السنوات والوحدة وزدت أنا في معاناتها، جنون أفكاري لم يتوقف عند الهجرة بل امتد ليوسوس لي بالذهاب إلى منزل فيروز، ولكني تراجعت عن هذه الفكرة أيضا، خاصة أنّي شعرت بسخرية الموقف وذاكرتي تستعيد ما كان يفعله "كريمو" زوج جارتنا غنيةوأنا طفل، حيث كان يأتي ليلا أمام منزل أهل زوجته وهو ينادي عليها بأعلى صوته ويترجاها حتى تعود معه إلى منزل الزوجية، دون أن يلقى الرد من زوجته أو حتى أهلها الذين يكتفون بغلق نوافذ وباب المنزل ويستمر كريمو في محاولاته عدة أيام حتى

ينجح فيأخذ بيد زوجته وولديه ويعود إلى منزله، ولكن القصة تتكرر مرة أخرى بعد عدة أسابيع، فيعود كريمو للحضور ليلا وطلب زوجته بتلك الطريقة، ولم أعرف لماذا يكرر كريمو هذه التصرفات، ومرة سمعت والدة غنية تتحدث مع والدتي، بعد ليلة ناجحة لكريمو في استعادة زوجته، وهي تقول لها:

"كي تشعلو اللمبة يجي كي الكلب يحاول، وكي يديها ويشبع منها، يعطيها طريحة ويطردها من الدار"

رغم أنّ خالتي فطيمة كانت غاضبة وهي تتحدث إلا أنّ والدتي ابتسمت بعد أن سمعت هذا الكلام، دون أن تلقى ابتسامتها اعتراضا من والدة غنية، وقد حاولت أن أفهم وقتها من والدتي ما قصدته خالتي فطيمة بكلامها ذاك إلا أنّها نهرتني وطلبت مني أن أذهب للعب، ولم أكتشف نوعية العلاقة التي كانت بين كريمو وزوجته غنية إلا بعد سنوات، لا يمكن أن أتخيل نفسي في موضع كريمو الذي كان محل سخرية كل سكان الحي، لدرجة أنّ نسوة البيوت القريبة من منزل والد غنية كلما عرفوا بحضورها يأخذون أماكنهم خلف النوافذ مع حلول المغرب، وكثيرا ما سمعت بعضهن وهن يتغامزن عن حلقة جديدة من حلقات كريمو الذي عرفت أنّه أصيب بالجنون بعد ذلك، هذه الصور الكاريكاتورية المخيفة جعلتني

أتراجع عن فكرة الذهاب إلى منزل فيروز، كما أنّ الأمور قد تكون أسوأ، فبأي صفة أذهب لدارها، وماذا أخبر أهل زوجها؟ !

كانت الأيام التي تلت قراءتي رسالة فيروز صعبة جدا عليّ وعلى والدتي التي أصبحت طريحة الفراش بعد قراري بعدم الزواج والذي أتعبها كثيرا، وهذا قبل أن يأتي صوت فيروز عبر الهاتف ذات مساء، لم تمهلني لإظهار أي ردة فعل، اكتفت بجملة وموعد وأقفلت الهاتف:

إذا أردت أن نلتقي، غدا في "كافيتيريا كازانوفا" خلف مديرية الأمن،أنتظرك في العاشرة صباحا.

شغلتني مكالمتها وشغلني موعدها الجديد، بقيت طوال الليل أتوقع ما سيحمله هذا اللقاء، ماذا ستقول، هل تريد تبرير ما قامت به، أم ستكتفي بالاعتذار ومطالبتي بنسيانها؟كانت تلك الليلة طويلة جدا كليالي الشتاء القارص، كثرت السيناريوهات داخل رأسي، ولكن السيناريو الحقيقي كان ملك فيروز.

لماذا اختارت "كافيتيريا كازانوفا" بالذات، وكيف تعرف مكانا بهذا النوع، أتريد أن تعطيني أكثر من قبلة لتكفر بها عن ذنبها، أم أنها تخشى أن يرانا أحد لو التقينا في مكان آخر، عكس هذهالكافيتيرياالتي رغم ما فيها إلا أنّها مهيئة لدرجة أنّه لا يمكنك معرفة الشخص الذي يجلس بالطاولة

الموجودة أمامك، كما أنّها مجهزة بجدران مغلفة بمادة عازلة للصوت تفصل ما بين طاولة وأخرى، وكأن صاحبها يمنحك الضوء الأخضر لممارسة المجون دون أن يشعر بك أحد.

لقد دخلت "كافيتيرياكازانوفا" مرات قليلة وكانت كلها مع نادية، فعندما كنت أرفض مرافقتها إلى غابة جبل الوحش تأخذني إلى هذه الكافيتيريا والتي لم أكن أعرفها وما أثارني بالإضافة إلى هندستها وسريتها هو اسمها "كافيتيريا كازانوفا"، كان عندي فضول غريب لأعرف معنى هذا الاسم، ولهذا سألت نادية التي أجابتني:

أكيد صاحب آل باتشينو(٢٤)، الاسم إيطالي وآل باتشينو من إيطاليا

لم أقتنع بهذا الرد، وهذا ما دفعني لقبول دعوتها مرة أخرى، حيث سألت النادل هناك عن معنى كازانوفا، ولكنه لم يكن متأكدا من رده:

صاحب الكافيتيريا متزوج من إيطالية، فقد يكون اسم زوجته.

لم أقتنع بهذا الجواب أيضا، فأردت التأكد من صاحب الكافيتيريا نفسه، ولكنني عرفت أنّه مستقر خارج الوطن منذ تفشي الإرهاب خوفا على نفسه، ولا يعود إلا كل بضعة أشهر لتفقد أملاكه هنا.

أتذكر أني دخلت "الكازانوفا" مرة أخرى فقط بعد ذلك، ولم أنجح في إيجاد الجواب، وفي الوقت الذي كنت حائرا في معرفة من صاحب هذا الاسم الحقيقي وما يعني، كانت نادية، تحاول إنارتي بمعلوماتها وهي تقول:

أتعرف أن برنارد شو يعتبر هذه "الكازانوفا" مثل الزواج؟

ماذا، وهل يعرف الفيلسوف الإيرلنديكافيتياكازانوفا"؟

ألا يقول برنارد شو أن الزواج كالجمعية السرية، الداخل فيها لا يستطيع أن يقول عنها شيئا، والخارج منها لا يعرف عنها شيئا..

بقيت مشدوها كالأبله ونادية تواصل التفصيل فيما قالت:

هذه الكافيتيريا مصممة بطريقة لا يمكن لأحد أن يكتشف ما بداخلها، وحتى من بداخلها لا يعرف ما يفعل من يوجد على بعد مترين منه، أي أنّه عندما تكون بداخلها تشعر أنك معزول عن العالم الخارجي، ولو سألك شخص في الخارج عنها لما استطعت الجواب، ستكون مثلك مثله، يعني مثل الزواج على رأي شو

ضحكت من هذا التشبيه الغريب لنادية، وأبديت اندهاشي من معلوماتها:

أنت تفاجئينني، لم أكن أتوقع أن تكوني تعرفين برنارد شو وآل باتشينو وأصوله الإيطالية؟

لم تكثرت لكلامي الذي كان فيه نوع من الاستهزاء بمعارفها، وواصلت كلامها:

أتعرف أن آل باتشينو لم يتزوج؟

لا أعرف، تقصدين أنه يرفض الزواج، أم...

ابتسمت بخبث من تلميحي الجنسي، وواصلت كلامها:

لا أقصد ذلك، أكيد أنّ له عشيقات كثيرات، ولكن لم يرتبط مع أي واحدة بعقد رسمي.

هذا عاد في بلدهم، فلو كان عندنا لتزوج رغما عنه.

ولكنك أيضا لم تتزوج، هل تريد أن تكون آل باتشينو، لن يكون من السهل عليك أن تلقى كل مرة من تطفئ نارك..

لم أرد أن أدافع عن نفسي من اتهامات نادية، فكل ما أصبح يشغلني في تلك الفترة، هو معرفة من يكون كازانوفا، ولماذا سميت هذه الكافيتيريا باسمه، قد يكون تفسير نادية صحيح فطبيعة الاسم تؤكد أنّه شخصية معروفة وقد يكون صاحب المحل معجب به، كما أنّ ما قاله النادل منطقي أيضا، استمر بحثي عن سر كازانوفا بضعة أسابيع، زرت فيها المكتبة الجامعية وكل مكتبات البلدية، وسألت كل من أعرفه وله اهتمام بالسينما والأدب، قبل أن أصادف على أرصفة بائعي الكتب بمنطقة "رحبة

الجمال"مجلة خليجية كتب على صفحتها الأولى بالبنط العريض "دون جوان وكازانوفا..من الأكثر حبا للنساء"، أحسست بفرح غامر، حملت المجلة وبدأت أقلب الصفحات بسرعة كبيرة، كنت أقرأ بنهم كبير غير مبال بما يدور حولي ولم أنتبه إلا والبائع ينكزني بعصاه وهو يؤكد لي أنّ المجلة للبيع وليس لي الحق في قراءتها دون أن أدفع ثمنها، أخرجت من جيبي المبلغ المطلوب وضعته في يد البائع وتوجهت مباشرة إلى أقرب مقهى.

أوف.. الرجل الذي تحمل الكافيتيريا اسمه يعتبر أكبر زير نساء في التاريخ لدرجة أن الزير سالم يعتبر رجل زاهد أمامه، فكازانوفا هذا يحكي عن نفسه في مذكراته أنّه عاشر ٢٢١ امرأة في حياته التي امتدت على مدار ٧٣ سنة، لم استطع استعاب الرقم ولم أفهم الكثير من تفاصيل رجل يعتبر أنّ الجنس هو المهنة التي أتقنها بامتياز رغم أنّه اشتغل في الكثير من الوظائف، وما أثار انتباهي معلومة جانبية قرأتها وحتى كاتب المقال غير متأكد من صحتها، تقول أنّ يوم ١٤ فيفري الذي يصادف "عيد الحب" جامع فيه كازانوفا أربع فتيات دفعة واحدة، ولا أدري إن كان هذا العاهر أراد الاحتفال بهذه المناسبة بطريقته الخاصة، أم أنّه صاحب فكرة "عيد الحب" والتاريخ ظلمه ونسبها لقديسين يحملان نفس الاسم، أكثرهما

رومانسية كانت كل علاقته بالنساء رسالة كتبها لبنت سجانه قبل إعدامه، جاء فيها "من المخلص فالنتاين".

في الوقت الذي كنت أكتشف هذا "الكازانوفا" مر عليّ كلام نادية عن علاقته بآل باتشينو فهو أيضا إيطالي من مواليد البندقية والغريب أنّ جدته هي من ربته، وكان آل باتشينو عاش فترة من الزمن عند جدته، ولكن لم أعرف إن كان كازانوفا تزوج ولو بواحدة من العدد الهائل من النساء اللائي اكتشف عوراتهن، أم أنّه فضّل العزوبية مثل آل باتشينو.

رغم أن علاقتي بنادية لم تعد كما كانت ولم تعد تطلب مني اللقاء منذ شعرت أني لا أفكر في الارتباط بها، حيث أصبحنا نكتفي فقط بتبادل التحية عندما نلتقي في الحي إلا أنّ ما عرفته عن كازانوفا جعلني استوقفها وهي عائدة الى منزلها، فضحكت كثيرا عندما عرفت سبب شهرته..

أكيد أنه كان يشبه ألان دولان

لا تتفاجئين لو قلت لك أنه تم انجاز فيلم يحكي قصته وجسد دوره ألان دولان.

سأبحث عن الفيلم وأشاهده

لا تتعبين نفسك، أكيد أنّه ممنوع من العرض وغير متاح أمام الجميع، فالكنيسة رفضت مذكرات كازانوفا وقتها واعتبرتها أكبر كتاب مجون في

التاريخ، فماذا تتوقعين عندما تحوّل كل تلك القصص الماجنة التي ذكرها في مذكراته إلى صور سينمائية.

أبدت نادية تحسرها وهي تردد:

خسارة لم يعش في وقتنا

أضحكني تعليقها الأخير والذي قالته وهي تغادر متجهة إلى منزلها.

بعد شهور من ذلك اكتشفت أنّ أكبر سوق سوداء لبيع العملة الصعبة بالمدينة يدعى أيضا "كازانوفا"، وكأن كل شيء بعيد عن القانون والمنطق مرتبط بهذا الشخص.

عادت قصة كازانوفا لتشغل تفكيري تلك الليلة وبقي السؤال عن سر اختيار فيروز كافيتيريا تحمل اسم أكبر زير نساء في التاريخ يتردد في داخلي بين الفينة والأخرى، وكأنها تريد تذكيري بخيانتي لحبنا مع نادية رغم أنها لم تلمح حتى لذلك في رسالتها.

٢

لم أفكر في حلق لحيتي وارتداء ملابس لائقة بموعد غرامي، فلقائي الجديد بفيروز لا أعرف إن هو موعد لتجاوز الخطوط الحمراء أم هو موعد للبكاء على الأطلال.

وصلت قبل الموعد المحدد بربع ساعة، بقيت أنتظر على مسافة قريبة من المدخل، فقوانين الكافيتيريا تمنع تواجد أي شخص لوحده بالداخل، لم تمر لحظات حتى لمحت امرأة تتجه نحوي، كانت في كامل الأناقة ترتدي حجابا مكونا من سترة وتنورة بلون أزرق داكن، وقد أخرجت جزءا من قميص أبيض ترتديه تحت السترة ليغطي صدرها مع خمار أبيض يترك بعض الشعرات تنسدل من الأمام تبعد الشرعية عن حجابها، إنتبهت للون الأسود الذي كان يزيد أناقتها إبهارا، حيث كانت تلبس حذاء أسود وتحمل حقيبة سوداء، وتخفي عينيها بنظارات بنفس اللون، كانت في كامل أناقتها، لا أعرف إن هي في حالة حزن أم تحتفل كعروس بلباس زادها أناقة، عندما أنهيت تفحصي لتلك السيدة كانت اقتربت مني، مدت يدها لتصافحني وهي ترحب بي:

صباح الخير قيس، كيف حالك؟

تملكتني الدهشة وأنا أكتشف من صوتها أنها فيروز، نفس النوتات كما كان في لقائنا الجديد داخل دار البلدية، ولكنلم تكن مغرية كما كانت دائما، ولم تستقبلني بقبلتين كما كانت تفعل عند لقائنا، لم تهتم لدهشتي أو حاولت تجاهلها وهي تطلب مني الدخول إلى "الكافيتيريا"

استقبلنا أحد العاملين هناك، ووجهنا إلى إحدى الطاولات الموجودة بالزاوية، أخذت فيروز مكانها دون أن تنتظر مني بروتوكولا بأن أعد لها كرسيها، اعتدلت في جلستها وطلبت مني الجلوس، أخذت مكاني في الجهة المقابلة من الطاولة وأنا لم أستفق بعد من هذه المفاجأة، كانت تنظر إلي ولا أتبين ملامحها المغطاة بتلك النظارة السوداء التي تكاد تغطي كامل وجهها، لا أدري أكانت سعيدة بلقائي أم هي مجبرة على هذا الموعد الذي اختارت له مكانا بعيدا عن الناس، وكأنها تريده أن يبقى سرا، والأكيد أنها أخذت كامل احتياطاتها، فحتى زوجها قد لا يعرفها بهذا الحجاب الذي لا أعرف إن كان مجرد قناع أم ارتدته فعليا، حاولت أن لا أظهر غضبي وأنا أسألها:

هل يمكن أن تقدمي لي تفسيرا لما فعلت؟

أجابت بهدوء وهي تنظر في عيني:

المكتوب..

لم أتمالك نفسي وأنا أسمع هذا التبرير الاستفزازي

المكتوب..تتمسخريبيا، هل تكفرين عن ذنبك مع رجل ميت بتحطيمي، ألم تعرفي أنك بقرارك قضيتِ على ذكورتي وعلى نسلي، أمي كادت تضيع مني بسبب ارتفاع ضغط الدم والسكري عندما أعلمتها بعزوفي عن الزواج، فأنا لا أستطيع الزواج من امرأة غيرك، ولكنك لم تبالي بكل ذلك أو لم يكن يهمك، مات رضا تدي خوه، يموت هذا تدي لاخر، أنت قطعة من أثاث البيت من يحتاجها فهي له، تقبلين أن تكوني الدمية التي يتداولها الأطفال، كلما رماها أحدهم انقض عليها الآخر..

كنت غاضبا جدا وأنا أوجه لها كلامي، وكانت مطأطئة الرأس تستمع فقط، قبل أن تظهر علامات الغضب وأنا أصفها بالدمية، رفعت رأسها ونزعت النظارة لتكشف عن وجهها الذي لم أعرفه، لم تكن فيروز التي أعرف، لأول مرة أرى وجه فيروز باهتا بهذا الشكل، لم يغط الماكياج شحوب الوجه والحزن البادي في عينيها، كانت كوردة ذابلة، وقد تكوّنت دموع بعينها دون أن تنزل على خديها اللذين فقدا لونهما الوردي، نظرت إلي:

هل تريد أن تعرف ماذا حدث بالضبط؟

إحكي يا شهرزاد..

لم تهتم لجملتي الأخيرة، ساد صمت مهيب بيننا، شعرتُ أنها ذهبت بعيدا لتجمع تفاصيل القصة، مسحت دمعة هربت منها فجأة وأخذت تقص عليّ جزءا آخر من حكايتها، جزء لم أعشه معها ولم تحمله رسالتها القاتلة:

أعرف أني ارتكبت خطأ كبيرا ولكني كنت مجبرة على ذلك، كانت الظروف أقوى مني وكان تأنيب الضمير يفجر رأسي، لقد وصلتني رسالتك بعد ثلاثة أيام من جنازة رضا، أحسست بفرح عارم وسط رائحة الموت التي كانت تحيط بي، كنت أريد أن أرفع سماعة الهاتف وأقول لك، نعم أقبل الزواج بك بعد أربعة أشهر وعشرة، ولكن رهبة الموت جعلتني أخجل من نفسي، فتراجعت عن الاتصال بك، ولم يكن أمامي إلا الرد على رسالتك الذي حاولت أن أكتبه بنفس أسلوبك، أنهيت رسالتي بجملة، نعم أقبل الزواج بك بعد نهاية العدة، لم أجد الفرصة حتى أرسلها لك وأطمئنك أني مازلت على العهد وسأكون لك، ولكن والدة رضا فاجأتني وهي تطلب مني الزواج من شقيقه هشام، كانت تراه نوعا من التضامن الأسري وحماية لي من صفة الأرملة ورأيته تكفيرا عن ذنب لم أرتكبه عمدا، لا أعرف كيف قبلت عرضها الذي باركته عائلتي، فلا توجد أم تتمنى أن ترى ابنتها "هجالة"(٢٥)، وتم الزواج بعد أسبوع فقط من نهاية العدة، لم نقم عرسا

لأنّ الظروف لم تكن تسمح بذلك، وفي ثاني يوم من الزواج عدت إلى رسالتي، لم أشأ أن أمزقها لأنها كتبت لك ويجب أن تصلك، قمت بتعديلها، فلم أعد أقدر على الزواج بك بعد نهاية العدة، لا أنكر أني ندمت على موافقتي على طلب والدة رضا، خاصة أني اكتشفت يوم الدخلة أن هشام كان أيضا مجبرا على هذا الزواج، ورفض مجامعتي، لأنه مازال يراني زوجة أخيه المحرمة عليه، كنا ننام في نفس الغرفة ولكن بعيدا عن بعضنا البعض، لم أكن أعرف مصير هذه العلاقة، وإلى أين تتجه ولكني عرفت أنّ هشام أراد فقط إرضاء والدته التي لم تستوعب حتى اليوم ما حدث لرضا، كان يحب رضا كثيرا، حتى أنّه انضم إلى الأمن الوطني فقط من أجل الانتقام لشقيقه، خاصة لما أظهرت تحريات الأمن أن أحد قاتلي رضا شخص كان يقيم في نفس الحي، يسمى "بيشو"، فهذا الشخص معروف عنه أنّه يتناول ويتاجر بالمخدرات، وكثيرا ما قبع لشهور في السجن ليفرج عنه مع كل مناسبة دينية أو وطنية بقرار رئاسي، قبل أن يختفي فجأة ويسمع في ما بعد أنّه صعد للجبل وانضم إلى الجماعات الإرهابية، حب هشام لشقيقه جعله يتخذ قرارين لم يكن معنيا بهما أصلا، الزواج بي والانضمام إلى قوات الأمن الوطني، إنه يعتبر أنّ زواجنا سينتهي بمجرد أن يقضي على "بيشو"، ولهذا بقينا نمارس تمثيلية بلهاء على "ما حليمة"

ماذا تريدين أن تقولي لي بكل هذه القصة؟

أني لم أخنك ولم أخدعك، وأني ما أزال أتمنى أن أكون زوجتك

أحسست أن فيروز بهذه الكلمات تستغفلني رغم تأكدي أنها صادقة، وأنها لم تعرف كيف تتعامل مع الظروف الصعبة التي فرضت عليها، ولكن لم أشأ أن أظهر لها موقفي، وأنا أقوم من مكاني قلت لها "رسالتك وصلت" وضعت ورقة نقود على الطاولة وغادرت دون أن ألتفت ورائي.

بعد هذا اللقاء أحسست أن زواجي بفيروز مازال ممكنا، ورغم حديثها عن إمكانية طلاقها من رضا، إلا أنّ سببا آخر كان يلح عليّ كوسوسة شيطان، فهشام انضم إلى قوات الأمن، وإمكانية اغتياله واردة، وحينها ستكون فيروز أرملة من جديد، استغفرت الله على هذه الأفكار الشيطانية، وأخذت طريقي عائدا إلى المنزل.

رسالة الدم

١

فصل جديد من قصتي مع فيروز يبدأ الآن، ولكن بنفس معطيات الفصل الأول، فيروز أصبحت مرة أخرى ملكا لرجل آخر، رجل يرفض جسدها ولا تستطيع هي أن تمنحه حتى شرف فض عذريتها.

منذ لقائي الأخير بفيروز أصبحت مدمنا على قراءة الجرائد، وخاصة الأخبار الأمنية، بحثا عن خبر يعيدها إلي، ولن يكون هذا الخبر إلا مقتل قاتل زوجها الأول أو اغتيال زوجها الثاني، فالخبر الأول سيكون تمهيدا لطلاقها بعد وعد زوجها بأنّه سينفصل عنها بمجرد أن ينتقم لشقيقه، أما الخبر الثاني فسيجعلها أرملة لثاني مرة ويفتح الطريق من جديد أمام ارتباطنا الذي تأخر لسنوات، كنت أردد هذين الاحتمالين عشرات المرات في اليوم الواحد كحفار قبور لا يقتات إلا من الموت، فالموت وحده يمنحني الحياة.

كانت الأيام تمر دون أن تحمل أي جديد رغم عشرات القتلى الذين يشيّعون يوميا ولكن لم يكن من بينهم هشام أو بيشو، فكرت أنّ عدم ذكر مقتل أحدهما في الجرائد لا يعني عدم حدوث ذلك فالجرائد أصلا لم تكن تذكر أسماء ضحايا هذه المأساة التي تلتهم الجزائريين يوميا، وأمام هذه

الوضعية وجدت الحل في حارس المقبرة فهو سيمدني بأخبار كل المتوفين من حي "الفوبور" وقد أجد منهم هشام أو بيشو.

ما إن رآني حارس المقبرة حتى ابتسم وأكد لي أنّه لم يعد أحد يزور قبر الصحافي رضا بولحبالبعد أن توفيت والدته قبل أسبوع، ورغم أني نسيت تماما الاتفاق الذي كان بيننا إلا أنّ خبر وفاة والدة رضا أحيى بداخلي فكرة طلاق فيروز فهي أخبرتني في لقائنا السابق أنّ هشام وافق على الزواج بها فقط لإرضاء والدته والأكيد أنّه سيقوم بتطليقها بعد وفاتها.

أسعدتني كثيرا هذه النتيجة ومع ذلك حاولت التظاهر بالحزن وأنا أقول لحارس المقبرة:

الله يرحمها، لقد عانت كثيرا بعد وفاة رضا

اكتفى بتحريك رأسه موافقا على كلامي، قبل أن يسألني:

هل من خدمة، أم جئت فقط لتجدد اتفاقنا السابق؟

حاولت هذه المرة أن أحصل على ما أريد دون أن أثير فضول هذا الحارس أو أن اعقد معه اتفاقا جديدا، ولهذا أخبرته أنّ زيارة قبر رضا بولحبال لم تعد تشغلني وأنّي هنا لزيارة قبر خالي الذي توفي قبل شهرين، ولكنّه فاجأني عندما سألني عن لقب المتوفى فهو يعرف كل سكانمدينة الأموات هذه وأين يسكنون بالضبط، ولم أجد إلا أن أذكر أمامه لقبا مر

فجأة في مخيلتي ومن حسن حظي أنّه كان هناك رجل توفي منذ عدة أسابيع يحمل نفس اللقب ولكن باسم آخر ما جعلني أقول له أنّ اسمه الحقيقي يختلف عن الاسم المعروف به، فوجهني إلى المكان المدفون فيه، وما كان إلا أن ذهبت إلى حيث أشار، حيث قرأت الفاتحة على روح رجل لم أعرفه طوال حياته.

زيارتي للمقبرة أفادتني بالكثير بالمعلومات ووضحت الصورة أكثر أمامي، فقد عرفت أيضا أنّه لا أحد توفي من عائلة بولحبال في الشهرين الأخيرين إلا والدة رضا، كما أنّ حارس المقبرة وأثناء رغيه المتواصل حدثني عن شقيق رضا الذي جاءه أمس وكلفه ببناء قبر والدته فهو مشغول جدا وعمله لا يمنحه الوقت الكافي للتكفل بهذا الأمر، وهو ما جعلني أستنتج أن تصفيته لبيشو مازالت مؤجلة.

حاولت مرة أخرى الاتصال بفيروز من أجل تشجيعها على طلب الطلاق فزوجها لن يكون أمامه أي عذر بعد وفاة والدته ولكنني فشلت في ذلك، فهي لا تزور قبر زوجها الراحل أو قبر حماتها ولا تزور منزل جدها في حيّنا، كما أني لا أعرف منزل والدها في المدينة الجديدة.

كانت الأخبار تتوالى وتتشابه حتى ذلك اليوم عندما لمحت عنوانا بالبنط العريض في الصفحة الأولى من الجريدة "قاتل الصحافي رضا

بولحبال يسلم نفسه لقوات الأمن"، هالني الخبر وشعرت أنّ كل الاحتمالات التي ستعيد إليّ فيروز سقطت في الماء، فهشام لن يتمكن من الثأر لشقيقه كما أنّه سيستقيل من عمله لأن التحاقه بقوات الأمن كان لغاية واحدة وهي الانتقام لرضا، وبالتالي لن يقتل هو أيضا، كما أن لا أحد يجبره على تطليق فيروز.

فتحت الجريدة على مقال طويل يؤكد فيه صاحبه أنّ الإرهابي (بشير.ب) المدعوبيشو قام بتسليم نفسه رفقة عدد من الإرهابيين لقوات الأمن وهذا تطبيقا لأحكام قانون الوئام المدني الذي فتح الباب أمام كل الإرهابيين للعودة إلى حياتهم الطبيعية، وحسب تحليل صاحب المقال فإنّ بيشو سيفرج عنه بعد استكمال الإجراءات القانونية، خاصة أنّه لم تثبت عليه أي تهمة من التهم التي قد تعرقل العفو عنه، وحتى تهمة قتل الصحافي رضا بولحبال لم تؤكد ضده، فالتحريات أظهرت أنّ العملية نفذها أربعة إلى خمسة أشخاص، وهذا ما يعني أنّ دم رضا بولحبال تفرق بينهم حسب صاحب المقال ولهذا لم توجه التهمة إلى بيشو.

٢

لم تمر إلا ثلاثة أيام على الإفراج عن بيشو حتى حدث ما لم يتوقعه أحد وكان من الممكن أن يتسبب في إلغاء الاتفاق الموقع بين الحكومة وقيادة "الجيش الإسلامي للإنقاذ"، خاصة أن الكثير من التائبين عادوا إلى الجبل بعد علمهم بحادثة مقتل بيشو على يد رجل أمن.

أذكر يوم الحادثة بالتفصيل، فقد كان يوم جمعة وكانت الساعة السابعة صباحا عندما أعلنت الإذاعة المحلية عن جريمة قتل في حي "الفوبور" واتضح بعدها أنّ شقيق الصحافي الشهيد رضابولحبال قام بقتل الإرهابي التائب المتهم الأول في قتل الصحافي قبل نحو عام من الآن، كنت وقتها أحتسي قهوة الصباح في مقهى عمي علاوة بالقرب من منزلي، وقد تعودت على التواجد مبكرا في المقهى حتى أيام العطل، بعد سماعي الخبر المفجع لم أدر إلا وأنا أستقل سيارة أجرة باتجاه حي "الفوبور" الذي كان وكأنه يشهد مظاهرة كبيرة بالنظر إلى العدد الهائل من الأشخاص الذين حضروا لمعرفة تفاصيل الحادثة، وبصعوبة بالغة تمكنت من التواجد في مكان يسمح لي بمشاهدة مسرح الجريمة الذي كان مقهى لا يبعد بأكثر من ثلاثين مترا عن

منزل فيروز، كان تواجد رجال الأمن كثيفا وعدد منهم يحاول إبعاد فضوليين كانوا يزاحمون سيارة الإسعاف التي كانت تغادر أثناء وصولي وهي تحمل جثة بيشو، إنطلقتسيارة الإسعاف بسرعة جنونية مقسمة الحشود الكبيرة إلى نصفين، في حين اندفع الكثيرون باتجاه المقهى لمعرفة تفاصيل الجريمة من صاحبها الذي اعتذر من الجميع وهو يقوم بتنظيف المكان من الدم الذي كان يغطي الأرضية بكاملها، وفي تلك الأثناء لاحظت فيروز تغادر منزلها رفقة أبيها وخالها السعيد الذي يسكن بحيّنا، ولكن كان هناك عدد من رجال الأمن وحسب ما فهمت من حركات الأيدي والشفاه أنّ أحد رجال الأمن ويكون المسؤول عن متابعة الحادثة رفض مغادرة فيروز منزلها في الوقت الذي كان والدها وخالها يحاولان إقناعه بضرورة مغادرتها للحي، وهذا خوفا من أي ردة فعل متهورة من عائلة القتيل، ولكن مسؤول الأمن أصر على رفضه وهذا ما دفع الثلاثة إلى العودة إلى المنزل، فيما طلب المسؤول الأمني من رجاله البقاء أمام المنزل، كما كان هناك عدد آخر أمام المقهى ومجموعة ثالثة أمام منزل ليس ببعيد أيضا عن مكان الحادث وعرفت أنّه منزل عائلة بيشو.

بقيت أراقب الأوضاع لأكثر من ساعتين، فيما قلّت الحركة بعد مغادرة الفضوليين وتدخل قوات الأمن لإرغام من تبقى من أهل الحي على الابتعاد

عن المكان والعودة إلى منازلهم، وفي تلك الأثناء لاحظت السعيد يخرج من منزل فيروز توجهت نحوه مسرعا وسألته:

رأيتك تحدث رجال الأمن قبل قليل، هل هناك مشكلة؟

أجابني وهو يمد يده لمصافحتي دون أن يتوقف عن السير:

لم أفهم لماذا يرفضون أخذ الطفلة معنا، بقاؤها هنا فيها خطر عليها.

نسيت لحظة أنّ عاداتنا تمنع علينا ذكر اسم فتاة من العائلة أمام شخص غريب، ولهذا استوضحته عن مقصده، وبعد أن أشار لي أنّه يقصد بنت أخته المتزوجة من رجل الأمن القاتل، سألته من جديد:

هل هي بخير، أكيد أنّ الصدمة قوية عليها؟

الحمد لله هي صابرة، فهذه المصيبة أهون من مصيبتي قتل شقيقها وهو يؤدي الخدمة الوطنية وذبح زوجها الأول، كنا فقط نتمنى أن يسمح لها بمغادرة هذا الحي اللعين فلا أحد بإمكانه التنبؤ بما قد يفعله أهل الإرهابي التائب أو حتى رفاقه.

كلام السعيد عن احتمال ما يمكن أن يحدث لفيروز أرعبني ولكن في نفس الوقت حمدت الله على سلامتها، لأسأله من جديد:

هل هو من قتله بالفعل؟

أجل، فهشام سلم نفسه واعترف بقتله لبيشو

إذن الأمر كان مخططا له ولم يأت صدفة؟

واصل السعيد كلامه ونحن نحاول توقيف سيارة أجرة للعودة إلى الحي:

هو أصلا التحق بالأمن من أجل الانتقام لشقيقه ولكن كنّا نعتقد أنّه سيقضي عليه في عملية لقوات الأمن، ولكن بعد نزول بيشو من الجبل وتسليم نفسه، أنا شخصيا اعتقدت أنّ فكرة الانتقام لم تعد مطروحة، ولكن يبدو أنّي كنت مخطئا.

أوقفت سيارة الأجرة وأنا أواصل استجواب السعيد:

هل بنت أختككانت تعلم بأنّ زوجها سينفذ تهديده اليوم؟

لا، لم تكن تعلم فحسب ما قالته أنّ زوجها غضب كثيرا عندما علم بالإفراج عن بيشو وهو قاتل شقيقه الصحافي، وقد أكدت لي أنّه في ذلك اليوم كان يفكر بالفعل في قتله وغادر المنزل وهو يقسم على تنفيذ تهديده، وهو ما جعلها تتصل بوالدها الذي توجه إلى منزلها دون أن يعرف ما يمكنه فعله، ولكن في الأمسية عاد زوجها إلى المنزل بشكل عاد وكان هادئا وأكثر من ذلك بدا وأنّه غيّر رأيه، وأصبح يؤكد لهم أنّ العفو عن بيشو أفضل، وهو ما جعل زوجته ووالدها يقتنعان أن هشام يكون تراجع عن فكرة

الانتقام بعد الحديث مع رفاقه في قوات الأمن وربما مسؤوليه لأنّ الدولة بكاملها تراهن على هذا القانون وليس من حق أي طرف أن يخرقه.

تدخلت من جديد:

الواضح أن تبدّل كلام هشام في ذلك اليوم كان يريد من خلاله تهدئة الأمور فقط إلى حين تتاح أمامه الفرصة المناسبة.

ربما...ولكن الأكيد أنّ عودة بيشو إلى حياته العادية جعل مهمة هشام أسهل

هنا تدخل سائق سيارة الأجرة الذي سمع الجزء الأخير من كلامنا:

لو كنت مكانه لفعلت نفس الشيء، أي قانون يمنح العفو لقاتل؟

انزعج السعيد من كلام السائق، وحاول توقيفه عن تدخله عندما وجه إليه كلامه، قائلا:

أنا المعني بالأمر، وأنا مع العفو، أم تريدون أن تبقى الدماء تسيل إلى ما نهاية.

لم يستسلم السائق الذي كان يبدو من كلامه أنه متتبع جيدا للتطورات الأمنية والسياسية التي تعرفها البلاد، ووجه كلامه مباشرة إلى السعيد وكأنه يتحداه:

إذا كنت تريد أن تعفو عن قاتل صهرك فهذا أمر يخصك ولكن لا تفرض الأمر على الجميع..

تدخلت لأمنح الحق للسعيد:

الحكومة أجرت انتخابات وأغلبية الشعب كانت مع العفو، هنا أنت من تحاول فرض رأيك على الأغلبية.

نظر إليّ في المرآة الموجودة أمامه حيث كنت أجلس في الخلف، وأظهر ضحكة استهزاء وهو يقول:

يبدو أنك مازلت تؤمن بالغول..

رفضت التعليق على كلام السائق فيما حرك السعيد رأسه مستهجنا ما سمعه، وفضل ثلاثتنا الصمت ما بقي من الطريق.

٣

في الغد ركزت كل الجرائد على الحادثة وحتى وزير الداخلية أكد أنّ ما حدث يبقى عملا معزولا ولا يمكنه التأثير على قانون فرضه الشعب بالأغلبية الساحقة، لم يكن يهمني من كل هذا إلا معرفة تفاصيل مقتل بيشو.

كانت الصفحة الأولى لإحدى الجرائد تحمل صورة بيشو يسبح في دمه وصورة أخرى لهشام وهو مقتاد من رجال الأمن، كان مبتسما وكأنّها الصورة التاريخية للشهيد العربي بن مهيدي عندما ألقت قوات الاستعمار القبض عليه، فتحت الجريدة أبحث عن التفاصيل التي نقلتها على لسان فيروز وعاملي المقهى، حيث أكدت فيروز أنّ زوجها على غير عادته خرج فجرا لأداء الصلاة في المسجد دون حتى أن يحمل مسدسه وعندما سألته عن ذلك أخبرها أنّ لا أحدا يتوقع خروجه في هذا الوقت وبالتالي لا خوف عليه، أما عاملا المقهى فجاءت روايتهما متطابقة، حيث أشارا إلى أنّ بيشو منذ عودته إلى الحي وهو يتناول قهوة الصباح في ذلك المقهى، حيث يأخذ مكانه في إحدى الزوايا منفردا مباشرة بعد صلاة الفجر ولا يغادر إلا مع طلوع الشمس، في حين أنّ هشام نادرا ما يرونه صباحا على عكس ما كان

أمس، حيث كان بيشو يحتسي قهوته كالعادة حتى دخل هشام وتوجه إليه مباشرة وفاجأه بعدة طعنات خنجر في صدره وبطنه وهو يردد "اليوم فقط سأنام مرتاحا بعد أن انتقمت لشقيقي"، وحسب رواية الشاهدين التي نقلتها الجريدة فإنّ هشام خلال تنفيذه للجريمة كان يتحدث مع بيشو الغارق في دمه وهو يشير له أنّه قتله بالخنجر وليس بالمسدس لأنّ الثأر ثأره هو وليس ثأر الدولة البريئة من الحادثة، وحسب الجريدة فإنّ هشام بعد ذلك قام بالاتصال بالأمن، حيث يكون تحدث مع أحد رفاقه وطلب منه الحضور للقبض عليه لأنّه قتل بيشو، فيما غابت رواية أهل القتيل الذين فضلوا الصمت حسب الجريدة بطلب من الأمن.

٤

لم أكن أعرف هشاموبيشو، ولكن بعد الحادثة أصبح الكل يتحدث عنهما، ورغم اختلاف القصص والروايات إلا أنّ الشيء المشترك بينها أنّ الرجلين كانا صديقين حميمين في طفولتهما وفي سنوات المراهقة، فحسب ما عرفت أنهما تربيا تقريبا معا وكان يقضيان معظم وقتهما مع بعض وأيام الامتحانات كثيرا ما كانا يراجعان الدروس في منزل أحدهما، وسمعت أيضا قصة تقول أنّ هشام أنقذ بيشو من الغرق في "وادبونفة" الذي كان الأطفال والمراهقون يقصدونه للسباحة أيام الصيف، ولكن الأمور تغيّرت قليلا في فترة الثانوية، ففي الوقت الذي كان هشام مصرا على النجاح ونيل شهادة البكالوريا بدعم من شقيقه رضا فإنّ بيشو أصبح يتهرب من الدراسة مفضلا العمل كصبي تاجر خضراوات، حيث كان هو من ينادي بأعلى صوته أمام المنازل والعمارات والترويج للسلعة، كما كان يستغل المناسبات الدينية مثل المولد النبوي الشريف والعيد لبيع المفرقعات ولعب الأطفال، وهذا ما أكسبه بعض المال وجعله غير مهتم تماما بالدراسة التي قاطعها نهائيا بعد تجربة وحيدة فاشلة مع امتحان شهادة البكالوريا في

الوقت الذي حقق هشام المطلوب وانتقل إلى العاصمة للدراسة في جامعتها المركزية.

وإذا كانت العلاقة فترت بين الشابين في آخر سنة إلا أنها انقطعت بشكل نهائي بعد أن أخذ كل واحد طريقه في هذه الحياة التي كانت أسوأ على بيشو الذي أصبح يتاجر بكل شيء لدرجة أنّه أصبح أول من يروج للزطلة(٢٦) على مستوى الحي، وكان الكثيرون يعرفون ذلك وكان مكشوفا تماما أمام رجال الأمن المنشغلين أكثر بالظروف الأمنية الصعبة، ومع ذلك كانوا يقومون بدوريات مفاجئة داخل الحي وفي أغلب الأحيان يتم القبض على بيشو وبعض رفاقه ومعهم بعض سجائر الزطلة، فيرمون بهم في السجن أسابيع أو شهور قبل أن يفرج عنهم مع أول مناسبة وطنية، وكان بيشو دائما يتهم رضا بأنه من أوشى به بحكم أنّه كان يكتب عن انتشارالمخذرات في الأحياء الشعبية ويلوم السلطات على تجاهلها للأمر معتبرا أنّ المخذرات نوع آخر من الإرهاب، والحقيقة أنّ رجال الأمن كانوا يقومون بدورياتهم داخل الحي مباشرة بعد صدور مقالات رضا، وحسب ما سمعت فإنّ بيشو قام بتهديد رضا إن هو واصل الكتابة فيهذا الموضوع، ووصلت القصة إلى هشام الذي ما إن عاد من العاصمة في نهاية الأسبوع حتى توجه إلى بيشو ودخل معه في صراع كبير محذرا إياه من الاقتراب من

شقيقه مرة أخرى، ولكن الأمور تطورت بينهما للأسوأ ولم تنتهي إلا بكسر أنف هشام بعد أن خادعه بيشو بلكمة لم يكن ينتظرها.

هذه الحادثة أشعلت الصراع أكثر بين الصديقين السابقين، حيث أحس هشام بالإهانة مما حدث له ورفض العودة إلى العاصمة حتى ينتقم من بيشو الذي غاب عن الأنظار بعد ذلك ليعرف في ما بعد أنّه صعد إلى الجبل بعد أن أصبح مهددا بدخول السجن لفترة طويلة وهذا بعد الأخبار التي تحدثت عن مساعدات مالية يقدمها للإرهابيين، وهو موضوع تحدث عنه رضا في أحد مقالاته دون أن يشير لبيشو لا من قريب ولا من بعيد، ورغم أنّ الكثيرين لم يصدقوا هذه القصة بحكم أن بيشو لا يملك الكثير من المال، وتجارته في المخدرات لا تزيد عن تلك السجائر التي يبيعها لشبان الحي والأحياء المجاورة، فإنّ البعض الآخر أكد أن بيشو كان يتوسط بين الإرهابيين وبعض التجار الصغار الذين يوفرون لهم المواد الغذائية والألبسة خوفا من بطشهم.

بعد انقطاع أخبار بيشو عاد هشام إلى العاصمة لمواصلة دراسته وبعد سنوات تحصل على الشهادة الجامعية ليعود إلى "الفوبور" ولكن بقي عاطلا عن العمل، فيما لم يسمع أحد بأخبار بيشو واعتقد الجميع أنّه يكون قتل، قبل أن يعود الحديث عنه بعد اغتيال رضا.

رسالة الفرح والجنون

بعد أيام من الحادثة، انتقلت فيروز للعيش مع والديها حسب ما أخبرني به السعيد، وأحيل هشام إلى محاكمة عسكرية ليحكم عليه بالمؤبد في خطوة لتهدئة الأوضاع بعد تهديد قيادة "الجيش الإسلامي" بالتراجع عن الاتفاق الحاصل مع السلطة بخصوص قانون الوئام المدني.

عادت فيروز إلى منزل والديها من جديد، تاركة خلفها زوجا قاتلا وذكريات زوج مقتول، وربما أمامها مشروع زوج آخر لا يمل الانتظار.

عادت الحسابات لتشغل تفكيري اليومي فلم يعد هناك حل لاستعادة فيروز إلا خلعها من زوجها، لا أعلم إن كانت فيروز تعرف هذا الإجراء، وحتى إن كانت تعرفه فهل تجرؤ على اللجوء إليه أم أنها ستعتبره عدم مروءة منها وتواصل التضحية وانتظار زوج آخر قد لا يكفيه ما تبقى من عمره لإكمال سنوات الحبس الخمس والعشرين؟

مرة أخرى أجد نفسي مجبرا على الانتظار فكل شيء مرتبط بفيروز، هي من تحرك الأحداث وهي من توقفها، هي من تستعجلها وهي من تبطئها، وما أنا إلا بطل ثانوي يتأثر بما يجري حوله، ولا يملك القدرة على تغيير قدره، هذا القدر المرتبط فقط بفيروز، وكأني خلقت فقط لأكون عاشقا ولا

أملك أي دور آخر في هذه الحياة، فيروز هي مركز دوراني وسكوني، هي نقطة جاذبيتي، وهي أساس وجودي في هذه الدنيا.

أسابيع أخرى تمر ولم تظهر فيروز، انقطعت كل أخبارها،

فكرت أن أسأل عنها خالها السعيد ولكني تراجعت خوفا من أي شبهة قد يحملها سؤالي، فضلت الانتظار في صمت، فالخبر السعيد سيأتي ولو تأخر، كل طرق فيروز القادمة تؤدي إليّ، وهي تعرف كيف تجدني وبالطريقة التي تريد.

نعم لقد عادت وبالأسلوب الذي أهواه، تركت لي رسالة في دار البلدية، كانت رسالة من سطر واحد "إذا كنت لاتزال ترغب في الزواج بي، سأكون لك بعد ثلاثة شهور"

كيف أتخلى عن هذا الحلم الذي طاردته كخيط دخان طوال السنوات الماضية ولم أتمكن من اللحاق به، نعم أريد الزواج بك، لم يعد يفصلني عنك إلا ثلاثة شهور أو ثلاث حيضات كما يقول علماء الدين.

لقد أصبحت فيروز حرة مرة أخرى، عاد الفاصل بيننا هو الزمن فقط، ولكن في المقابل لا أملك القدرة على اختصاره أو حتى تسريعه، ثلاث حيضات هي المدة التي يبرأ فيها الرحم ويتخلص مما علق به من شوائب زوجها فتكون لي نظيفة طاهرة وكأنها لم ترتبط برجل قبلي، لقد اختار

زوجها المسجون أن لا يمسح أثر رجولة أخيه فيها، ولكن كان علينا الانتظار، تسعون يوما أو أكثر بقليل لا تساوي شيئا أمام سنوات مرت وكنت دائما فيها في محطة قطار أنتظر امرأة لا تجيء ولكن هذه المرة كل شيء جاهز لاستقبالها، صافرة الوصول أعلنت وستكون فيروز في حضني بعد أسابيع قليلة.

غادرت مقر عملي متوجها إلى امرأة أخرى أحمل لها الدواء السحري الذي سيشفيها من أوجاعها وسيعيد لها شبابها الذي تركته خلفها.

لم تصدق والدتي وأنا أزف إليها قراري بالزواج، كانت ردة فعلها زغرودة طويلة جعلت كل نسوة الحي يحجون إلى دارنا يستفسرون عن سبب الفرح المنبعث من منزل لم يرقص منذ سنوات، كان سؤال الجميع في البداية واحدا يتكرر، وكان جواب والدتي واحدا: "قيس رايح يتزوج"

بعد ذلك تعددت الأسئلة لمعرفة الفتاة التي أعادتني إلى طبيعتي، ولم تكن والدتي تملك الجواب، ولهذا قامت بإخراجهن كلهن من المنزل، حتى تنفرد بي وتعرف تفاصيل الانقلاب المفاجئ.

كانت "ما يمينة" فرحة كطفل صغير، ترقص من غير موسيقى، كانت سعيدة كبنت في العشرين تحضّر لزفافها، لم تطرح عليّ أسئلة كثيرة، اكتفت بسؤال واحد: "شكون هذه البنت اللي غيرتلك رأيك نبوس لها رجليها؟"

لأول مرة أتحدث عن فيروز أمام والدتي، كنت سعيدا وأنا أقص عليها حكايتي، وفي الوقت الذي كانت سعادتي تكبر مع كل ذكرى أمر عليها في حديثي عن فيروز كان وجه والدتي يفقد جزء من فرحه، كنا نسير في اتجاهين متعاكسين، أنا أتجه نحو الجنة وهي نحو الهاوية، أصبح الذهول باد على وجهها قبل أن تصرخ في وجهي "أسكت عليا"

أجبرتني على الصمت، شعرت أني طعنتها ولم أحمل لها البشرى التي انتظرتها أكثر من ثلاثين سنة، لأول مرة يتمزق ستار الحياء بيننا وهي توجه إليّ كلاما لم أكن أعتقد أنّي سأسمعه من والدتي طوال حياتي:

الله يلعن الحب اللي يخليك تتزوج هجالة، مابقاوش النساء في البلاد حتى تقبل بخردة(٢٧)، ٣٠ سنة وأنا أنتظر اليوم اللي تجي تقلي أخطبي لي، ٣٠ سنة وأنا نحلم ندير لك عرس كبير ولكن بامرأة تع الصح مش...، قلي واش ينقصك حتى تتزوج بواحدة تداول عليها الرجال، واش من سحور وكلت لك، كون شفت واحدة بأولادها وهنيت روحك..

دخلت والدتي في حالة هستيريا وهي تنفث في وجهي كلاما لا يقال حتى في الشارع، لم أعد أفهم ما تقول، كانت طعناتها قاتلة، كانت الأرض تهتز من تحتي وأنا أسمع هذا الكلام، فيروز عاهرة في عرفها وأنا بلا رجولة.

مرة أخرى تسقط أحلامي في الماء، بل حلمي الوحيد.

لا أعرف كيف حملتني قدماي إلى الخارج، لقد كان صعبا تحمل خسارة فيروز من جديد وهي التي أصبحت بين يديّ، حاولت أن أبكي ولكن الدموع لم تطاوعني، كنت أسير عبر الأزقة، لا أعرف إلى أين اتجه، أمد خطوات متثاقلة، كانت كلمات أمي تخترق رأسي كما يخترق صوت الرصاص سماء المدينة الحزينة.

تمت بحمد الله في ديسمبر ٢٠١٥

قسنطينة – الجزائر

شعيب زواوي

هوامش

(١): محل للهاتف العمومي

(٢): مدينة بأقصى الشرق الجزائري

(٣): هل أنت بخير؟

(٤): مجانا

(٥): الحمى

(٦): أبدا

(٧): قائد الثكنة

(٨): مثل شعبي يشير إلى طول العمر

(٩): غابة للتنزه تشتهر بالعلاقات الغرامية

(١٠): منقول عن جريدة تونسية

(١١): رواية للكاتب الجزائري بن هدوقة

(١٢): من أكبر المجازر التي عرفتها الجزائر ارتكبها الإرهابيون بمنطقة بن طلحة في ٢٢ سيتمبر سنة ١٩٩٧ وراح ضحيتها ٢٠٠ شخصا

(١٣): صفائح معدنية رقيقة تستعمل أسقف للأكواخ

(١٤): مثل شعبي يعني أنّ تجدد اللقاءات ممكن جدا مهما اختلفت الأزمنةوالأمكنة

(١٥): الغريب

(١٦): المقبرة

(١٧): المحسوبية

(١٨):تستعمل اختصارا للجملة الفرنسية (S'il vous plaîtrégler.. وتعني رجاء أنجز لي طلبي

(١٩): قائد عثماني شغل منصب بايلك الشرق الجزائري (١٧٧١-١٧٩٢م)، وشهدت فترت حكمه عدة إنجازات وعرفت منطقة بايلك الشرق ازدهارا اقتصاديا واجتماعيا مما أدى إلى ازدياد نفوذه وولاء الشعب له، أدى كل هذا إلى غيرة باشا العاصمة وخوفا على منصبه خطط لقتله وتم له ذلك سنة ١٧٩٢ وأدت هذه الحادثة إلى موجة حزن عبر كافة بايلك الشرق وكتعبير عن ألم الأمة ارتدت النسوة لباسا أسودا يسمى بـ"الملاية" ما زالت تستعمل حتى اليوم.

(٢٠): سلاح الكلاشينكوف

(٢١): شعار الجماعات الإرهابية

(٢٢): حزام من الذهب تتزين به النسوة في الأعراس

(٢٣): نوع من المعادن يذاب ويصب في الماء فيتشكل بأشكال مختلفة يقوم المشعوذون من خلالها بإسقاط ما يريدون إخبار الشخص المعني به على تلك الأشكال وإيهامه بأنّهم يقرؤون الغيب من خلال تلك الأشكال

(٢٤): ممثل أمريكي من أصل إيطالي

(٢٥): تعبير عامي لوصف المطلقة والأرملة

(٢٦): الحشيش (القنب الهندي)

(٢٧): الأجهزة القديمة المستعملة، وتطلق كناية عن المرأة التي تداول عليها الكثير من الرجال